لذكرى الرفيقين (تايهان وجهاد) أحمد يلدرم ورمزي آكوش.

إن عملية الرفيق تايهان وشهادته فتحت الطريق لحياة كريمة. عملية حرق الذات بطولة عظيمة، وبهذا أكدوا بشكل عظيم مدى ارتباطهم بالوعد الذي قطعوه على أنفسهم، للحزب وللشهداء وللقائد وللشعب.
ومهما كنا لا نوافق على عملية حرق الذات، لكننا نفهم معناها جيداً لأن رفاقنا خطوا هذه الخطوة من أجل تخفيف عقبات الثورة، وعلينا تنفيذ وصاياهم لحظة بلحظة هذا هو هدفنا الأساسي.
لم يشكل الرفيقين تايهان وجهاد إطاراً دفاعياً من اللهب حول القائد فحسب، بل أضاؤا معه طريق الشعب والثورة. إن هذه العملية التي نفذها الرفيقين قد خففت صعوبات الثورة، ومن أجل الوصول للحرية ألقت علينا مسؤليات أكبر تجاه القضية.
نُذكر الرفيقين تايهان وجهاد مرة ثانية باحترام؛ وبهذه المناسبة نؤكد على ارتباطنا بمقاتلينا الذين حملوا المسؤولية، وبحرية شعبنا، آملين أن يشعر شعبنا الوطني في مجموعة الدول المستقلة، بأهمية هذه العملية وارتباطاً به أداء المهام التي تقع على عاتقهم.

مع تحياتي واحتراماتي
عبد الله أوجلان
الرئيس العام لحزب العمال الكردستاني

ثلاثة وثلاثون يوماً في الطوفان

(رواية حول حقبة تواجد القائد أوجلان في الأراضي الروسية
والعملية الفدائية التي قام بها بطل الرواية الشهيد تايهان)

ذكرى الشهيدين

تايهان وجـــهاد

اسمعونا

ترقبونا في الثورة الإنسانية.
امسكونا
في اللهب المحمل بالحرية.
لتترمد أجسادنا
أنثرونا
في عنان السماء
في عمق البحار الزرقاء.
في السهب الحمراء المصفرة.
في عشية انتصار وطننا
في جبالنا الشامخة

اغسلوا أرواحنا
في الأنهار المقدسة
والوديان الساحقة

عروا الجمال
ارسلونا
مع رياح الاستقلال
ابسطونا على أشعة الشمس
ادفنونا في السماء

١٦تشرين الثاني ١٩٩٨
تايهان أوميد ـ جهاد

شخص قائدنا آبو، ونحن مرتبطين بهذه التوجيهات حتى الموت ونطلب من القائد أن يسامحنا، ونصرخ قائلين:"الحياة حرام علينا بدون القائد والوطن". وننفذ عمليتنا.

- الموت للقوى الرجعية التي تهاجم بحقارة قائدنا الوطني آبو.

- الموت للخيانة المحلية والعالمية.

- يعيش ARGK-ERNK-PKK

- يعيش القائد آبو.

عوضاً عن المقدمة

عادة ما يكون الطوفان طويلاً، صعباً شديداً، هائجاً خشناً، يحرق ويهدم كل مأيصادفه. فيه؛ تفنى البشرية، تنهار الجبال والصخور، تستوي الأرض بمن فيها، تنصهر فيه الألوان حتى تترمد، والشمس فيه تختفي، لا يخلف وراءه شيئاً سوى الآلام والمآسي المفجعة والذكريات التي لا تستطيع سنوات الدهر إزالتها من حافظة البشرية؛ تلك الذكريات التي تدق في ذاكرة المرء كإزميل محدب الرأس.

لربما تلقينا النبأ من إذاعة تعالى فيها صوت أجاويد وهو يتلعثم في كلامه، إثر عودتنا من عملية ونحن مرهقين مضرجين بالدماء. بعدها؛ لا أدري لعلها تكون من مشيئة الأقدار والصدف أن تذاع في تلك الأثناء أغنية حزينة:

الأيادي مذنبة
الألسنة مذنبة
إنها محرقة عصر
العالم، كل العالم مذنب
ما من بريئ
لسنا بريئين
أياً منا

تجمد كل شيء؛ شفاهنا شُلت، أصابعنا تحجرت، عيوننا تصلبت، حتى انحبست أنفاسنا في صدورنا.

أيجوز أن يُشد المرء من عنقه ويغرق في اللحظة نفسها..؟! أو أن يُسكب الزيت المغلي فوق رأسه، أو أن يكوى لحمه وتسحب أظافره..؟! أو أن تحطم عظامه وتفقأ عيناه..؟! أيجوز عمل كل ذلك في الوقت نفسه..؟! كل مإذكرناه آنفاً عانيناه في اللحظة ذاتها..!! تماماً مثل ماعانته الملأيين.

المياه انحسرت، دحرجوا قلوبنا كجذع صنوبرة صوب أسفل الوادي. كانت مرعبة؛ من شهدها خُلدت في ذاكرته، ومن لم يشهدها لم يدركها تماماً...

ثلاثة وثلاثون يوماً في الطوفان، هي ثلاثة وثلاثون يوماً من هذه النغمة. ثلاثة وثلاثون يوماً كمثيلاتها ملأت صفحات تاريخنا المعكوس. ثلاثة وثلاثون يوماً في السهوب وبين التوندرا. ثلاثة وثلاثون يوماً في موطن لينين وتولستوي. ثلاثة وثلاثون يوماً تحت رحمة القرار. ثلاثة وثلاثون يوماً أبيضاً، ثلاثة وثلاثون من الليالي البيضاء. ثلاثة وثلاثون يوماً من الإرادة والمقاومة.

إنها ليست "كالنكا" الكازاخ المحيطين بـ" دون ارام" ، وليست بنشيد الجيش الأحمر. ليست بصرخات صيادي أسماك أوديسا، ليست أغاني عمال الفولغا. انها... فقط وفقط صرخة الكرد التي تتعالى خارقة ألسنة النار وسياطها التي أخذت تتموقد من جسده وروحه. استمعنا إلى هذه الصرخة عن قرب، فخانتني رعشة بدني. أجل، إن قصة بازاروف الابن النهلي ومحبوبته العاصية أودنيسوفا انتهت برقصة النار.

تحت سحب الدخان الكثيفة عندما شارفت قصة، سيدار القديم وتايهان الجديد، على الانتهاء كانت خيوط الشفق قد اخترقت حلكت الليل كحزمة سهام أطلقت من وتر شُد حتى لوى القوس... علب تبغنا لم تبقى فيها سوى الغبار...ولم يكن قد بقي ما نتكلم عنه، لأن الكلمة كانت قد أدت ما عليها...

الألم والتفاؤل تشابكا كضفيرة شدت بمهارة، لكن تم حمل بعض الأسرار لمن عاش في الماضي...

١٦- شباط -٢٠٠٢

ايديولوجية القائد آبو الإنسانية التي بعثت فينا الحياة تأمرنا بذلك. إحساسنا الإنساني بمعاناة شعبنا المعاصر وارتباطه بالقائد، وروح المسؤولية تأمرنا بذلك.

الرغبة والشوق والثقة بالنصر في مواجهة رجعية العالم تأمرنا بذلك.

رغم كل شيء فقد علّمنا القائد أن نعيش باخوة ومحبة مع الجميع. وقضى كل حياته في النضال من أجل هذا. كان معلماً ومرشداً إنسانياً لنا، نعيش كالاسطورة. الفرح والسعادة التي زرعها القائد فينا يأمرنا بذلك.

العشق والأمل في الروح الآبوجية المتمثلة في أعلى مستوياتها في شخص القائد يأمرنا بذلك.

قائدنا الذي هو وحدة كل قيمنا يأمرنا بذلك. مهما أرادوا تعميق التراجيديا المفروضة على شعبنا ووطننا. عبر المؤامرة التي دبروها ضد قائدنا الوطني، فان التاريخ سيذكر هؤلاء كما يذكر أولئك الذين صلبوا عيسى وحاولوا قتل محمد، إلى الابد. وابناء شعبنا الذين يحملون القنابل ليفجرونها بأنفسهم لا بد انهم سينفجرونها بهم غداً.

واليوم عندما يحرق أبناء شعبنا أنفسهم من أجل الحرية سيحرقونهم في الغد. فليس لدى شعبنا أية غاية سوى أن يعيش كانسان، ولسوف يلعن كل هؤلاء المتآمرين.

المواقف الضعيفة لا تعود بالفائدة لاحد، وستلحق الضرر بالصداقة والجمال والخير وستؤثر على الإنسانية، لذلك ندعو المتعاملين مع هذه القضية ان يتحركوا بدرأية ومعرفة تحت ظل هذه الحقائق، وان يكونوا مسؤولين عن هذه القضية ويناضلوا من أجل الأفضل.

بهذا الشأن ندعو الرأي العام الإيطالي لهذه الحملة الوطنية الشاملة لافشال المؤامرة وليكونوا حذرين لأن هذه الحملة هي امتحان للانسانية.

على البرلمان الروسي وتشكيلاته "الدوما" أن يرتبط ويلتزم بقرارها تجاه القائد.

مرةً أخرى، ورغم كل شيء على الحكومة الروسية إحترام هذا القرار لأنه قرار الشعب.

كان قائدنا الوطني يقول للشعب:"كونوا حذرين؛ لا تنفذوا العمليات الإنتحارية". إننا نقبل هذه التوجيهات لأنها ميزة إنسانية تتواجد في

قوى المؤامرة تخطط لابادة شعبنا عبر ابادة قائدنا، هؤلاء يريدون تكرار التاريخ. لكن القائد أعطاهم الرد اللازم باحيائه للتاريخ من جديد. والنداء الذي اطلقه القائد من خلال اضرابه عن الطعام اشبه بنداء عيسى عندما كان على الصليب حين رفع رأسه قائلاً:"سامحهم يا أبتي، لانهم لا يعلمون ما يفعلون".
أجل التاريخ يحيا من جديد..!.
هجرة النبي محمد هي خلاف ما يقال بأنها بدأت بهجرته إلى المدينة ٦٢٢ ، بل تبدأ من هجرته إلى الطائف قبل المدينة بفترة طويلة. وما مثلت الطائف للنبي محمد فان موسكو تمثل ذلك لقائدنا آبو.
ودعوة أهل المدينة لمحمد شبيهة إلى حد بعيد بدعوة شعب روما للقائد. فبالامس كتب اسم المدينة في التاريخ بأحرف ذهبية، واليوم روما مرشحة لذلك.
نيرون دخل التاريخ لانه أحرق روما، واليوم على روما ألا تدخل التاريخ بحرقها للشعب الكردي. لأن المؤامرة ضد قائدنا الوطني تعد بمثابة حرق آمال شعبنا الكردي.
شهدت روما أعظم مقاومة في التاريخ ألا وهي مقاومة سبارتاكوس، وأكبر خيانة وهي خيانة بروتوس ونحن على قناعة بأن روما ستمثل المقاومة بدل الخيانة. فقتل آمال شعب يعني ابادته وستكون جريمة وإثماً كبيرين لن يعفو عنه التاريخ. يملك شعب روما ميراثاً انسانياً في التاريخ، نحن على ثقة بأنهم سيكونون لائقين بتاريخهم اذا ما ابدوا وقفة صادقة من قائدنا الوطني آبو. وبذلك سيقدمون خدمة للانسانية.
ربما أن تاريخ الخيانة لم يسمح لنا باحياء روح الإمام علي، ولكن تاريخ المقاومة بدأ منذ آلاف السنين عندما أشعل كاوا الحداد النار، وعندما أوشك على الإنطفاء قام كاوا العصر بتصعيده ثانية لإعادة الحياة إلى الإنسانية من جديد، كمهمة تقع على عاتقه. عواطفنا وروحنا تأمرنا بذلك. وإدراكنا للتاريخ يجعلنا نحقد على عدونا الذي يسعى لتحويلنا إلى حيوانات.

افتتاحية...

تم كتابة ٣٣ يوماً في الطوفان في جبال قنديل.

كنت شاهداً على ٣٣ يوماً في الطوفان؛ مرت سنوات كانت قساوتها وبمرور الزمن تفقد تفاصيلها في ذاكرتي. عند احساسي بذلك، استجمعت قواي واتخذت قرار الكتابة. كتابة ٣٣ يوم في الطوفان يتطلب الجرأة والقوة، وبالنسبة لي هي المرة الأولى التي سأقدم على عمل كهذا. بعد انغماسي لفترة طويلة في سؤال: هل أستطيع الكتابة..؟ اتخذت القرار اللازم، لكن مع الأسف لم نسجل الـ٣٣ يوماً تلك، لعدم وجود أداة التسجيل أو كاميرة تصوير، وكانت ذاكرتي الأداة الوحيدة التي عليّ استخدامها، لإنني ساكتب للمرة الأولى.
ربما أن /٣٣/ يوماً في الطوفان عمل لم يظهر بطموح كبير، وربما لم أتمكن من التعريف بجميع جوانب الشخصيات، لأنها البداية. فقد بَدَأت في التاسع من تشرين الأول، وفي الخامس عشر من شباط وصلت إلى منعطف هام والطوفان لأيزال مستمراً، وأعتقد استمراريته من الآن فصاعداً أيضاً. آنذاك كان القائد يقول: **"اكتبوا"** فحاولت إظهار ارتباطي بهذه الكلمات عبر هذه الكتابة وإن جاءت متأخرة.
٣٣ يوماً في الطوفان؛ هي حاجة لمحاسبة الوجدان، وإنتاج محاسبة ذاتية، لذا استهدفت إنهاءه في الخامس عشر من شباط.
أشكر الرفيق "د" الذي شاركني بأفكاره والرفاق (بد...) و(سر...) الذين ساندوني باستمرار بأفكارهم ومقترحاتهم وانتقاداتهم. وأشكر إدارة طابور الشهيد جيلو لمساعدتهم لي أثناء الكتابة، كما أشكر أيضاً جبهة الشهيد روجهات وغيرهم الكثير من الرفاق لاهتمامهم وتشجيعهم.

١٥- شباط - 2000

القائد وتايهان في منزل ميترافانوف

رسالة الرفيقين الشهيدين تايهان وجهاد
إلى الرأي العام

ان الامبريالية الامريكية والصهيونية الاسرائيلية والديكتاتورية الفاشية التركية تهدف من خلال حبكها للمؤامرة الدولية ضد قائدنا الوطني آبو إلى القضاء على نضال حركة التحرر الوطني الكردستاني، لذلك على جميع الدول والأوساط التي شاركت في هذه المؤامرة الدولية بشكل مباشر أو غير مباشر ان تعرف ما يلي:

لم يشهد التاريخ الإنساني حتى في أصعب الشروط مثيلاً ُ يشبه الشعب الكردي المظلوم، في مقاومته لفاشية الجمهورية التركية. تلك الفاشية التي حلت ككابوس على الامة الكردية من خلال لجوئها إلى سياسة الإنكار والإبادة، حتى أفقدت الشعب الكردي حقيقته وهويته، وأصبح بذلك بعيداً عن جوهره وحرم من شخصيته الحقيقية لتغدو منحطة بدرجة تخون هويتها لتصبح قبيحة في وجه العالم.

لقد خلق قائدنا شخصية جديدة وفي أصعب الظروف لتتحول اليوم إلى قوة تحمي مصالحها الوطنية والكونية، وسوف تقطع كل يد قذرة تمتد إلى قائدنا الوطني. يريد أصحاب السجية المعادية للقيم الإنسانية واصحاب الأيادي القذرة ابادة شعبنا وازالته من عالم الإنسانية ومن التاريخ، بسياسة الابادة العرقية، وذلك عبر تطاولهم على قائدنا. ونحن سوف نقوم بتشهير وجوههم وأرواحهم القذرة أمام الإنسانية التقدمية.

خلق القائد آبو من ذلك الشعب المسحوق، غير المنظم والذي كان بعيداً عن العصر حتى الامس، شعباً منظماً ومقاوماً، ومن اجل تحقيق ذلك ابدى ويبدي الحساسية والتنظيم والقرار المسؤول. وشعبنا المظلوم والمرتبط بروحه ودمه، بقيمه الوطنية جميعاً والمتمثلة في ارقى مستوياتها بالقائد، اصبح كل فرد فيه قنبلة حية وحلقة من نار حول القائد، في مواجهة سياسات الابادة المركز على شخص قائدنا آبو، ومنفذيها.

نضال شعبنا هذا لا يهدف إلى تحقيق آمال أربعين مليون مضطهد فحسب، بل آمال كافة القوى المضطهدة، والدفاع عن آمال وطموحات القوى التقدمية. وفضلا عن ان يكون ذلك واجباً فهو ضرورة حياتية.

أودينسوفا

من الواضح بأنني سأعيش شتاءاً مبكراً هذه السنة، وهي المرة الأولى التي أعيش فيها فصلاً في منطقة أخرى. برد الشتاء القارس حل باكراً قبل حلول شهر تشرين الأول، وأنا لم أتاقلم بعد مع مناخ هذه المنطقة وفصولها، فلا صيفه صيف، ولا ربيعه ربيع. أتيت إلى هذه القرية مع حلول النوروز والديار التي جئت منها كانت تفوح منها رائحة خضرة الربيع الرائعة، لكن الثلج هنا يزيد سماكته على المترين. فالشتاء حل دون أن أحيا ربيعه وصيفه. لقد تعودت على فصول الأناضول، البلاد التي عشت فيها، حيث لكل موسم ذوقه الخاص، لكن هذه المنطقة لم تكن تمنح نفس الشعور لإنني سندسي المنشأ. لم أشعر بحرارة شهور الصيف،لأنه لم يكن حاراً. منذ طفولتي وفي فصل الخريف كنت أمشي فوق أوراق الشجر الصفراء واستمع بشوق إلى صوتها المتعالي من تحت أقدامي. استغرقت في خيالاتي، والأوراق الصفراء اليابسة الموجودة على الشجر، تتطأير في السماء مع هبوب الريح، لتظهر رقصة ملونة من مئات الأوراق. كثيراً ما كنت اجلس فوق سور حديقتنا الخشبي، أنظر إلى لون الخريف الأصفر تحت الأشجارالممتدة على طول الطريق. كل تلك الذكريات كان يضيف حزنا آخر.....

في هذه المنطقة لا وجود لأوراق الشجر الصفراء، ولا للون الخريف الأصفر. هنا شجرة واحدة فقط، وأوراقها لا تصفر في أي موسم، بينما الأخضر موجود في كل الأوقات.

تعلمت في هذه السنة مدى تأثير الجغرافيا والفصول على نفسية الإنسان. والآن أستطيع أن أستوعب أكثر من أي وقت مضى حيوية إنسان البحر الأبيض المتوسط، ولماذا الناس في سيبيريا أشبه بالجليد. طبعا الشعراء سيولدون في المناخ الساحلي المعتدل. أما مناخ هذه المنطقة فقد أثرت على روح إنسانها، إذ أن معظم أوقات السنة تمضى بالشتاء القارس. حتى أشهر الربيع والصيف تحوي بداخلها الشتاء والربيع، بالمقابل هناك بعض المناطق في هذه البلاد لا تنتعش بحرارة الشمس في أي يوم من أيام

من أجل العشق والاطفال
فاذا حل الليل
العصافير أين ستعشعش
كنت صديقي..
وابتسامتك تشرق شموساً جديدة
كل ليلة
سأعلق صورتك في الهواء
وظل سحابة
سأكتب لك رسالة.... بعظمة الجبال
كل ليلة
اما الآن
فصوتك التائه يناجيني
وانت ترتجف بردا
انت صديقي... لا تنسى
لذا
أود الموت....حيث انت

السنة. فالشتاء هو الفصل الوحيد. هنا من هذه الوجهة أناسها باردين كالجليد وملامحهم جامدة وكأنها لاتملك أية مؤثرات عاطفية.
قبل إنهيار الاتحاد السوفيتي كانت الشبيبة تستخدم القرية صيفاً، كمعسكر للكشافة. وبقيت مهجورة مدة طويلة إلى أن اشتراها الرفاق. القرية مخفية بين غابات الصنوبر العالية الكثيفة لدرجة إنك لا ترى القرية إلا عندما تقترب منها كثيراً. أما اسم القرية فهو ما أطلقه عليها الرفاق، رغم إنها ليست قرية بالمعنى الصحيح للكلمة. اسمها الأصلي (سالنجي لاغر) ومعناها معسكر الشمس المشرقة، لهذا السبب يقول عنها رفاقنا "معسكر الشمس" وهو الأصح، ولكن اسمها غدا منذ الآن "القرية".
يتعجب الزوار من عدم مشاهدة مزرعة وبستان ودجاج وأبقار كما يظنون، ويتعجبون من اسم القرية وما يصادفونه أمام ناظرهم. عندما تصل إليها عبر الغابة، تدخلها من خلال بوابة ذات قضبان حديدية. تواجهك بنايتان ذات ثلاث طوابق؛ يتألف كل طابق من غرف فردية متقابلة. أما الطريق الاسفلتي القادم عبر الغابات فيمتد حتى ستوديوMED.TV الذي يقابله مباشرة غرفة طعام كبيرة مصممة بهذا الشكل الكبير ليتمكن مئات شبيبة الكشافة أن يأكلوا الطعام، بهذا الكم الهائل من الأشخاص سوية، لذا فهي تحتوي طناجر كبيرة وطهايات وبرادات. كذلك هناك عجانة وفرن لصنع الخبز. كل هذه الآلات وغيرها الموجودة في أنحاء القرية لاتعمل جيداً نظراً لعدم استخدامها منذ سنوات طويلة، وفي أقصى الخلف يوجد مخزن.
بجانب الاستديو هناك بناء مؤلف من عدة غرف، انشأت لتستخدم من أجل الأعمال الفلكلورية والغناء وهي تابعة للاستديو، إلا إنها عاطلة بسبب عدم توفر العاملين في هذين المجالين.
أكبر العاملين والمستفيدين هم أطفال القرية الصغار؛ أطفال الحزب؛ بعضهم أبناء الشهداء والبعض الآخر أبناء أُسر انضمت إلى الحزب، وهم يتلقون تدريبات في مختلف فروع الفن، قسم يتدرب على البيانو وآخر على الغيتار وثالث على البزق. يتمرنون أيضاً على الرقصات الشعبية وكذلك البإليه، ورغم توفر الامكانات التقنية في الاستديو إلا أنه لا يتقن استخدامها سوى عدة أشخاص. هناك بناء آخر ذو طابقين بجانب غرفة

هذه الأثناء جاء أحد الرفاق بفاكس قادم من موسكو. كانت الكتابات معنونة "إلى الرأي العام العالمي".؟
إزداد حسرتي، لأن خط الكتابة كان لتايهان...أسرعت في قلب صفحاتها مرتبكاً....رأيت النهاية مكتوبة بـ اسم تايهان أوميد وجهاد..... تايهان أيضاً..!؟
كلا... مستحيل...!
كل الموجودين هناك كانوا في سكون يتابعون التلفاز، واذ بأحد الأطفال (كان يستقبلنا كلما ذهبنا إلى القرية) يصرخ وينحب...
هفال تايهان...هفال تايهان....!
أسرعت متجهاً نحو التلفاز.
وسط ظلام دامس، ثمة جسدان يضيئان بلهيب النار ويصرخان:
عاش القائد آبو... عرفتهم بعد ان تمعنت النظر؛ كان لابساً قميصه الابيض.
تعالت الاصوات واختلطت في الغرفة.
صحيح أني أعدت عواطفي وأحاسيسي لهذا الصباح لكن ليس بهذا القدر، فتحمل ذلك كله كان يستدعي قوة خارقة، لا أملكها.

تذكرت هنا أحد اشعار "أحمد تللي" والذي كان يعبر عن مأساتي هذه بأروع معانيها:

دموع عيني انصدت
بمجراها.... فتطايرت
لحناً مسترسلاً
المغتربون ....أين موطنهم
اشتقت لضحكاتهم
وكأن المدينة بهم كانت جميلة
وبرحيلهم ستغدو منهارة
اللذين عاهدوا الموت

لم يكتف جهاد بسكب البنزين على بدنه، بل شربها أيضاً، حينئذ أخذ تايهان العبوة من جهاد ثم أشبع خطوط الحلقة التي رسمها جهاد بالبنزين ومن ثم بدء بسكبه على بدنه...

كان آراس شاداً على الكاميرا بكلتا يديه، يصور المشاهد الحية التي تتراقص أمام عينيه، مذهولاً دون حراك.

انتهى كل من جهاد وتايهان من عملية سكب البنزين، وبدأ تايهان باخراج قداحته (معقد آماله)، ثم تعانقا بحرارة.. وما هي إلا لحظات حتى غاص ظلام الليل الحالك بين ثنايا لهيب نار جسدي جهاد وتايهان، لتشكل أعظم مشهد من مشاهد رقصة النار والحرية عندما كانا متعانقين بعضهما وحلقات النار تهتف باسمهما أما هما فيهتفون بـ:

عاش القائد آبو

عاش القائد آبو.

كان آراس في لحظات دهشة وتعجب، لأنه رأى جميع تلك المشاهد من خلال عدسة كاميرته. فكلما توسع النار كلما إزدادت المساحة المضاءة...وفي هذه الأثناء تذكر كلمات تايهان:"أوصلوا هذا الشريط إلى الحزب، مهما كلف الأمر".

خاطب آراس، طاهر صارخاً...

هيا.....لنذهب..

اختفت عربة الجيب بسرعة خارقة ذائبة في حلكة الظلام الدامس.

****

فارقني النوم وكأن الصباح يهرب كلما فتحت عيناي. عيون جهاد وابتسامته كانت ترتسم أمام ناظري، ولا سيما دفئ احتضانه.

ما الذي سيحدث في الصباح يا ترى؟ ما كان يثقل همومي وآلامي هو أن تودع أحد رفاقك مدركاً بأنه سيفترق عنك إلى الأبد.

كنتُ أحاول إعداد عواطفي التي بدت وكأنها تنهار تحت عبئ ما. في الصباح الباكر اتجهتُ نحو المكان المعلن للاضراب عن الطعام. كان هناك جمع غفير من الاطفال والمسنين. بحسرة كبيرة فتحت التلفاز، في

الطعام، يتألف من غرف كبيرة صممت على شكل مهاجع يمكن أن ينام فيها عشرات الأشخاص.

الطريق الترابي يمتد من جانب البناء، لينتهي في الغابات على مشارف نهر فولغا الذي يمتد على ضفتيه أكواخ خشبية، تضم كل منها عدة غرف وأجملها بيت خشبي، يختفي بين كثافة الغابة، لا يرى إلا إذا اقتربت منها عدة أمتار. كوخ أصفر اللون ومن الداخل درج خشبي، يؤدي إلى الطابق العلوي، يمكنك مشاهدة نهر الفولغا منه، لكن الأكواخ الموجودة على جانبي نهر الفولغا هي أبنية للقرية، مهترئة لأنها لم تستخدم منذ سنوات عديدة، حتى غدا بعضها لا يصلح للاستعمال لإهترائها الشديد. عدد قليل جدا كان لا يزال صالحاً للاستعمال وحتى الكوخ الأصفر ذو الطابقين المختبئ بين الغابات لا يصلح للاستعمال. على جانبي النهر تتوأجد مقاعد، تصلح للمطالعة والنقاشات. نهر الفولغا يمر عبر القرية كأنه أفعى زاحفة، يختفي بين غابات الصنوبر ومن ثم تتحد مع مجرى النهر الكبير في "يارس لافيا". غابات الصنوبر كثيفة جداً وقد تتوه في حال إبتعادك مائة متر فقط.

ياللغرابة ، لم أتاقلم مع جغرافية هذ المنطقة بعد، لكن الغابات كانت تمنحني نوعاً من الشعور بالراحة، وهذه كانت أصعب مرحلة أمر بها في حياتي. لم أعثر هنا على الخيالات التي رسمتها للتنظيم، كالمفاهيم والعلاقات الرفاقية الحارة التي شاهدتها، إنما العكس انعدام الحل والتجديد، يخلق ويصنع قيودا ليديّ وقدمّي، حتى يوصلني لوضع لا أستطيع فيه التنفس لأحطم الخيالات التي عشتها. عندها تنتشلني الغابات من تلك الوضعية الكئيبة، فأسير في الغابات الصنوبرية الخضراء لأكبح انفعالاتي وأتخلص من التوتر وأسرح بعيداً في خيالاتي وأتابع المسير مع رائحة الصنوبر، حتى أختفي في الغابة. حينها أتذكر شعر ناظم حكمت:

الحياة كالشجرة

وحيدة حرة

وكالغابة

أخوية

مرة أخرى اللوحة المتشكلة من الفولغا الزاحف عبر القرية وحتى الأفق تلطف روحي، لكن النقص يكمن في الخلل الموسمي، الذي إذا ما توازن، فالجغرافيا تصبح جميلة رغم كل شيء.

صباح يوم الأحد، كنت في الخارج بجانب البيوت الخشبية، تلفحني برودة الطقس، جلست ككل مرة بجانب نهر الفولغا، أمتع عيني بهذا المنظر وأستمع بصمت إلى جريانه الآخرس. أضيع معه وأتخيل أنني في وادي نهر منذر الذي يندفع مياهه بجنون، يسير لمواكبة غده، حتى إن جريانه لا يفسح المجال لعبوره، وإذا تقدمت أكثر تشاهد فوقه جسور خشبية معلقة في الهواء وبجانبه سياج حديدية. بعض الأناس المسلحين على أكتافهم حطب يسرعون الخطى فوق الجسور المعلقة الشبيهة بالممرات الضيقة، ليختفوا داخل غابات الحور... غزال وحيد يهبط الجبل الضبابي الشامخ متجهاً نحو نهر منذر ويشرب الحليب.ّ كلا..كلا... أنه منبع النهر؛ إذ يتدفق كالحليب من جانبي الجبل، ليتحول إلى ماء بعد جريانه قليلاً.يرفع الغزال عينيه ناظراً من الجهة الفوقية للقرية و...على الطريق الضيق القادم من الغابة لمحت "GULAN" تحث الخطى بعجلة وفي يدها التلفون، وما أن رأتني حتى اتجهت نحوي وبصوت لاهث:

رفيق سيدار، الرفيق تايهان يطلبك من موسكو مستعجلاً، أخذت التلفون وبدأت أتكلم معه بتحفظ واحترام. كان في الطرف الآخر تايهان وبصوته المفعم بالروح الرفاقية ككل مرة: استمع جيداً لما سأقوله لك، ليس لدي الوقت الكثير، توجه في هذا المساء إلى موسكو وسنكون في انتظارك صباحاً في البيت، لا تنسى أن تجلب معك ألبستك الإحتياطية.

أستغربت للأمر فقد يكون استدعاءاً مؤقتاً أو ربما كلياً. قلت بتحفظ: "خيراً، ما الذي حصل" مع الكلمة الأخيرة أضاف : "تعال وحينها سنتحدث، إذهب الآن وجهز نفسك ثم استقل عربة وأحضر مباشرة".

كانت صدى كلماته لا تزال في سماعة التلفون حين أغلقته بقولي "حسناً".

من الظاهر إن "كولان" لم تفهم ذلك جيداً، كانت تنظر بعيون مليئة بالتساؤل والحيرة ولكني لم أعطها الفرصة لتتكلم، إذ قلت: لا تسألي شيئاً لإنني لا أعرف وسإذهب لأعرف...

السيارة.... كونوا حذرين... لا تعتقلوا... لا بد ان تسلموا الشريط للحزب دون التحجج بأية ذرائع أو مبررات".

صعدوا السيارة ثانية.. اتجهت السيارة نحو "الدوما" سالكة الطريق الفرعي. وسط ازدحام السيارات في الشارع الفرعي، وفي الجولة الثانية عثر الرفيق تايهان على المكان المناسب وقال: "أجل، توقف هنا" بعد أن أوقف طاهر سيارته، نظر جهاد بعيون ترسل أسمى معاني الجمال والصدق إلى آراس وطاهر قائلاً: "حافظوا على صحتكم... أوصلوا سلامي إلى كافة الوطنيين..! وداعاً..!" حمل العبوة المليئة بالبنزين ونزل من السيارة راكضاً نحو ساحة البرلمان. عند ذلك التفت تايهان إلى آراس الجالس في المقعد الخلفي قائلاً: "هيا أفتح النافذة وأعد الكاميرا" أوشك جهاد على الوصول إلى ساحة البرلمان، أما آراس فكان لا يزال مشغولاً بفتح النافذة التي أبت ان تتزحزح بسبب تراكم الصقيع عليها، قال آراس مرتبكاً: "لا أستطيع فتحها".

رد تايهان:" أذب الجليد بنار القداحة" "لا املك قداحة" وبحركة سريعة أخرج تايهان القداحة من جعبته. "خذ واستخدمها". بدأ آراس باذابة الجليد المكون على النافذة بنار قداحة تايهان الهادئة. تايهان: أسرع يا آراس.

كان آراس يذوب مع ذوبان فلذات الجليد لكنه واصل محاولاته دون توقف. في هذه الاثناء كان جهاد قد شكل حلقة دائرية من البنزين وسط الساحة الأمامية للبرلمان.

ألتفت تايهان إلى آراس الذي لم يكن منتهياً من اذابة الجليد ليفتح النافذة تماماً وقال:

أعد لي القداحة لأنها تلزمني ولا أملك غيرها.

اضطر آراس لصرف كل قوته، حتى نجح في فتح النافذة حتى منتصفها.

تايهان"حسناً، باستطاعتك التصوير من هنا"

أخذ آراس الكاميرا ووضعها بين يديه، حينها خرج تايهان من السيارة مباشرة واتجه نحو جهاد بخطوات سريعة ووصل إليه، كان جهاد يسكب البنزين على بدنه من رأسه حتى أخمص قدميه، أما تايهان فركض متجهاً نحو البرلمان تاركاً الرسالة أمام مدخله، ثم عاد مسرعاً إلى جهاد.

تختفي الابتسامات البشوشة عن شفتي الرفيق جهاد، أما تايهان فكان غارقاً بين أفكاره وخيالاته.
ألتفت جهاد إلى آراس قائلاً: "سأسلمك رقم هاتف عائلتي، ربما يلزمك"رد الرفيق آراس غاضباً: "لا، لن يلزمني ما دمنا سوية" أصر الرفيق جهاد على إعطائه رقم الهاتف (مبتسماً): "خذ الرقم، ربما تحتاج إليه"" كم أنت غريب الاطوار، لن آخذه ولتبقى في جعبتك"
لم يصر الرفيق جهاد أكثر من ذلك، بل طوى الورقة ودسها في جيبه، ثم واصل الحديث مع الرفيق تايهان مسترسلين ذكرياتهم الماضية التي أمضوها ضمن الكريلا، ضاحكين تارة، صامتين أخرى. بعد وقوف السيارة في إحدى محطات البنزين القريبة من موسكو، أخذ الرفيق تايهان عبوتين من البنزين ووضعها في المقعد الخلفي بجانب آراس ونبهه بالحفاظ عليهما.
انطلقت السيارة هذه المرة بكل سرعتها دون توقف، لكن ما كان يزيد من دهشة آراس هي تلك العبوتين، مفكراً ومخاطباً نفسه " لا بد أنهما لأجل إحراق إحدى المراكز التابعة للدولة، ومهمتي ستكون تصويرها".
ما إن دخلت السيارة مركز مدينة موسكو، حتى انعكست أنوارها على عينا جهاد وتايهان، فأخذتا تومضان وتتلألان أكثر من لمعان نجوم تلك المدينة الباردة، اتجهوا نحو الشارع الذي يتواجد فيه برلمان "دوما".
وعندما اقتربوا من الهدف، قال تايهان لآراس؛ "جهز الكاميرا في مكان مناسب، وضع الشريط فيها، جربها إن شئت، كن حريصاً فلن نقبل أي عطل أثناء التصوير "فور سماع آراس لذلك أخرج الكاميرا وأعدها وهو غارق في التفكير؛ "لا بد وأنهم سيحرقون مكاناً قريباً من البرلمان".
حذر تايهان السائق طاهر بأن يتوقف في شارع فرعي، نظراً لإزدحام الشارع الرئيسي المؤدي إلى البرلمان بالسيارات.
"رفيق طاهر توقف هنا".توقفت السيارة، ثم ترجلوا جميعاً. قال تايهان لآراس وطاهر بهدوء واتزان:" سننفذ عمليتنا الآن في الساحة الأمامية للبرلمان، لكن هناك المناوبين المسؤولين عن حراستها، لذا سنقوم بجولة سريعة ونقف في مكان خاف عن أنظارهم، أما انتم فستصورن من داخل

ذهبت كولان نحو الغابة، فأسرعت بتحضيراتي، وفي وقت قصير أتممتها واتجهت نحو كراج الباصات. بعد حوالي الساعة من خروجي من القرية وصلت إلى كراج الباصات الموجود في مدينة "يرا سلافيا"؛ إنه كراج صغير لا يشبه كراجات إستنبول أو أنقرة، فمدينة "يرا سلافيا" في الأساس مدينة صغيرة، وأولى الحافلات التي تتوجه إلى موسكو تتحرك في الساعة الثانية عشرة ليلاً، لذا لا بد من التوقف في مكان والإنشغال بأمر ما إلى حين موعد التحرك. دخلت أول كافيتريا وقعت عليها عيناي؛ مقهى صغير يحوي عدة طاولات. جلست بجانب الطاولة المجاورة للنافذة وطلبت قهوة من أحد العاملين، أناس هذه المدينة باردون بقدر برودة الجو وبوجه متجمد جلب لي قهوة ساخنة حطمت ولو قليلاً من تلك البرودة في داخلي. امتزج بخار القهوة المتصاعد مع أسئلة دون ردود، لكن السؤال الرئيسي في داخلي كان، لماذا ..؟ رغم إني وضعت احتمالات كثيرة، لكني لم أجد جواباً مقنعاً، لماذا استدعاني..؟ كنت وحيداً في الكافيتريا ومن خلال النافذة الزجاجية بدأت أراقب حزن الأضواء في ظلمة الليل. أحسست بحاجة إلى محادثة رفيق صميمي وكم تمنيت لو كان تايهان هنا.
حان وقت التحرك، فرشفت ما تبقى من القهوة وخرجت من الكافيتريا متجهاً نحو الحافلة المتحركة إلى موسكو والساعة تشير إلى منتصف الليل تماماً. شوارع خالية وضجيج النهار ترك الطرقات لهدوء الليل، وبعد منتصف الليل بقليل انطلقت الحافلة متجهة نحو موسكو. لحسن حظي إن رقم المقعد الذي حجزته كان في القسم الخلفي بجانب النافذة؛ فالمقاعد المجاورة للنوافذ مرغوبة أثناء السفر الذي يخلق لدي الكآبة؛ كلما سارت الحافلة يختلط الألم مع الذكريات التي هجرتها لتمتزج بالأسئلة العديدة حول المجهول القادم. الحافلة تسير على طريق يمتد على جانبيه أكواخ خشبية بعضها ملونة وبعضها الآخر لاتزال تحتفظ بلونها الطبيعي. هذه الأكواخ كانت إحدى الاشياء النادرة المحببة لدي في هذه البلاد، كلما رأيت تلك الحدائق أتذكر صفحات قصة الإنسان الذي يعيش في كوخ صغير والطبيعة صديقته الوحيدة، يمتزج معها بكافة أشكالها، لهذا اختار الوحدة عن قصد، كلما مر كوخ وقبل أن أتفحصه كفاية يختفي بسرعة. أجل سأحصل على أجوبة لكل الأسئلة التي بقيت دون جواب بعد نهاية الـ

(٢٧٠ كم) لماذا.. ولماذا..؟ سأكون في موسكو مع خيوط الشفق الحمراء الأولى.

الوقت كان يمر بطيئاً وفي المقعد الخلفي يجلس طفل في الثالثة أو الرابعة، أشقر ذو عيون عسلية. الجميع ينام إلا هذا الطفل الجميل، أردت ملاعبته بحركات من عيني، ولكنه أيضاً تعب بعد فترة وغرق في النوم. انتابني فجأة إحساس بأن الطريق لن ينتهي وتكرر صدى الأسئلة في دماغي، فأغلقت عيناي لأتخلص من الضيق الذي خلقته الأسئلة العديمة الحل. أجبرت نفسي على النوم، لأنها أفضل الحلول وأسهلها، وأستطيع عبرها أن أقترب من خيوط الشفق الأحمر أكثر.

استيقظت مع توقف الحافلة وبعد إلقاء نظرة على الجوار، أدركت إنني وصلت إلى موسكو، استنشقت بعمق... أوه، لقد ارتحت الآن. الناس بدأوا يصحون لتوهم والطقس قارس جداً، فارتديت الجاكيت ونزلت من الحافلة واضعاً اللفافة حول رقبتي. أسرعت الخطى نحو البيت الذي سألتقي فيه مع تايهان. كانت الشوارع خالية، فاستعجلت أكثر للوصول بأسرع وقت ممكن لأتدفأ. لا أعرف ما هي مسار وسيلة النقل التي ستذهب إلى المكان الذي اقصده، بالإضافة إلى إنني لم أعثر على أية واسطة. خطر على بالي ركوب سيارة تكسي بآخر ما تبقى لدي من النقود، لكن العثور على سيارة في هذا الجو والوقت أمر في بالغ الصعوبة. وبعد فترة وجدت سيارة قديمة ففتحت الباب وركبتها مباشرة. كان السائق كهلاً كسيارته، شعره ابي، قلت له" فيدانكا" وحاولت أن لا يدرك السائق جهلي للروسية، لكن نظرات العجوز المليئة بالتجارب كانت كافية ليدرك إنني غريب. قلت عندها في داخلي: ياويحي، فما أن يعرف إني غريب، حتى سيجد لنفسه وبشكل مؤكد طريقة لأخذ مال أكثر، فرضيت مُكرها لهذا الوضع عندما لم أجد مفر آخر. ناولت السائق ما تبقى من المال الذي في حوزتي بعد وصولي إلى فيدانكا. تسلقت درجات البنأية بخطوات سريعة، قرعت الجرس، يبدو أنهم لم يستيقظوا بعد. وبعد فترة الانتظار بدت لي طويلة، فتح تايهان الباب وهو يفرك عينيه الناعستين وما أن رآني حتى بدت في نظرته ابتسامة رفاقية. عانقته ما فيه الكفاية، حيث لم يكن مر على فراقنا الأخير سوى فترة قصيرة. مرة أخرى نتخطى حسرة الصداقة، قال

تايهان وكأنه يخرج إلى رحلة طويلة..! كان ينبهني لسقاية أزهاره عندما يذهب لرحلة بعيدة، أما الآن فانه سيعود بعد فترة قصيرة... كنا سنلتقي في ظروف عدة أيام..! لماذا يطلب مني هذا رغم اننا سنلتقي بعد فترة قصيرة وخلال عدة أيام؟؟؟!!!..

السيارة التي سلكت طريقها وسط ظلام دامس، كانت قد قطعت شوطاً نحو المكان المستهدف، ومع كل مسافة تقطعها السيارة كانت الحيوية والنشاط تدبان في جسديهما. أما الرفيق آراس المكلف بمهمة التصوير فكان يجهل ما يخبئه لهم نهاية الطريق، لأن الرفيق تايهان حذره بعدم السؤال إطلاقا عن هذه المهمة، لذا بدا ملامح الاضطراب والحيرة على محياه. على صدى صوت المذياع كان الرفيقين جهاد وتايهان يتبادلان فيما بينهما نظرات التفاؤل، التفت تايهان إلى طاهر قائلاً: إذا سمحت توقف في مكان مناسب.

عثر الرفيق طاهر على مكان للتوقف، فترجل الجميع. كان البرد قارساً وحبيبات الثلج تلفح وجناتهم دون انقطاع. كان الرفيق تايهان قد نبه الرفاق على التزام الصمت داخل السيارة خشية احتمال وجود أجهزة تنصت تسبب لهم المهالك، (لأن السيارة كانت سابقاً لماهر ولات وقد استعملها كثيراً أثناء ذهابه وإيابه عند القائد). موضحاً إن لم يكن ثمة حاجة ضرورية: أرجوا ان تكون نقاشاتنا حول مواضيع عامة. التفت الرفيق تايهان إلى الرفيقين طاهر وآراس قائلاً: "كما هو معلوم يارفيق طاهر: انت مكلف بمهمة قيادة السيارة أما انت يا رفيق آراس فبتصوير العملية التي سننفذها ، كما عليكم التحلي بالحذر واليقظة ومغادرة المكان فور الإنتهاء من تصوير العملية، ثم تسليم شريط الفيديو إلى الحزب ونشرها في القنوات المناسبة، بشرط عدم إلحاق الضرر بالحزب. هل استوعبتم ذلك يا رفاقي..؟ هل استوعبت يا رفيق آراس..؟

هز الرفيق رأسه مؤكداً استيعابه أوامر الرفيق تايهان. ثم التفت إلى الرفيق طاهر قائلا: وأنت يا رفيق طاهر هل فهمت ما ستقوم به..؟ نعم...

صعدوا السيارة بعدما تسرب البرد إلى أجسادهم، مداومين السير نحو الأمام، سالكين طريق موسكو. اثناء الطريق لم تنقطع الألحان العذبة ولم

تابع حديثه:"تمت جميع التحضيرات، الجيب هنا، ونظمت طاهر من اجل سياقة الجيب، وأنا أيضاً سأذهب إلى مكان العملية، كما تكلمت مع آراس فهو الاخر سيحمل كاميرته وسيأتي معنا، أعطيته التعليمات باسم الحزب بقولي:"اننا سنذهب إلى عملية، وانت ستأتي وستصورها". لا يعرف محتوى وشكل العملية، ولن يعرف حتى آخر لحظة، في المساء سنخرج للطريق".

كنت أرتدي بلوزاً صوفياً اعطاني إياه تايهان، أما تايهان فكان يرتدي بلوزاً صوفياً ذات ياقة ولونها عسلي. قال تايهان:" المكان الذي سنذهب إليه بارد لنبدل البلوزة".قمنا بتبادل البلوزات.

"سنلتقي وقت الذهاب" ثم ذهب.

جاء تايهان إلى غرفتي، وعندما أيقظني كانت تظهر مصابيح الجيب الحمراء المشتعلة والتي مازال محركها يدور، فالساعة تجاوزت منتصف الليل، ظلام دامس وبرد قارس في الخارج. كان شخصاً جالساً وراء مقود السيارة يشبه طاهر، همس تايهان مبتسماً:"إننا ذاهبون".

خرجت لتوديعهم كان البرد شديداً فوق ما تصورت، الثلج يهطل والجليد أخذ يتشكل على شعرنا بعد دقائق. جهاد كان ينتظرني في الخارج، وآراس يتجه نحو السيارة وهو يحمل حقيبة الكاميرا. جهاد كان مسروراً جداً، قال مبتسماً: "وأخيراً نحن ذاهبون، حافظ على هذا المكان جيداً، ابقى بصحة جيدة..".

بعد انهاء كلامه احتضنا بعضنا بشدة، امتلأت عيوننا دموعاً. خبأ جهاد عيونه في الظلام وبعجلة قال: "أتمنى لك النجاح"، وفارقني راكباً سيارة الجيب. كنت أنظر وراءه وكأني تجمدت.

وصل آراس إلى السيارة وجلس في المقعد الخلفي. كانوا بانتظار تايهان للتحرك.

تايهان: "سنلتقي قريباً" بعدها احتضنني وكأنه سيذهب إلى سفر بعيد. ثم أضاف:"انتبه لنفسك جيداً". سار مباشرة إلى السيارة، فتح الباب الأمامي للسيارة، وعندما همّ بالصعود التفت للخلف وقال ضاحكاً: "لا تنسى سقاية أزهاري..!.. اهتم بالقطة البيضاء... لا تسمح لأحد بأن يضربها أو يطردها..." ثم صعد السيارة التي اختفت بعيداً عن الأنظار. لماذا ودعني

ضاحكاً: تعال ادخل، فالجو بارد، نحن أيضاً ننتظرك، دخلنا مباشرة ولم يكن استيقظ بعد من كان في البيت. نظرت حولي لكني لم أتعرف على البعض. دخلنا الغرفة الأخرى، بدا وكأنه باستطاعتي الآن الحصول على جواب لأسئلتي الحائرة وطرحت فوراً عدة أسئلة:

ـ ما الذي حصل ..؟ لماذا ناديتموني..؟

ـ تمهل لا تكن مستعجلاً، سنتحدث بعد أخذك قسطاًمن الراحة.

ـ لقد أخذت ما يكفيني من الراحة في الطريق، لنتكلم الآن.

(تايهان ضاحكاً و كأنه يريد إشغالي)

ـ حسناً، ما هي توقعاتك، ماذا تتصور..؟

ـ ليس لدي أية فكرة عن الأمر، مع العلم إنني ناقشت مع ذاتي كافة الاحتمالات، إلا أنني لم أعثر على سبب مقنع.

هذه المرة قال تايهان مبتسماً:

ـ استعد إذاً، سأقول الآن....

نظرت إليه بفضولية، لكنه كان يريد زيادة فضولي، وبعد لحظة واحدة قال:

ـ ستذهب للأكاديمية.

قفزت واقفاً متعجباً وفرحاً:

ـ ماذا! سإذهب للأكاديمية..؟ إنك لاتمزح أليس كذلك..؟

ـ كلا..! كلا..! افتح أذنيك و اصغي جيداً، سأعطيك خبراً أهم

ـ خفض صوته لدرجة الوشوشة وبشكل متقطع:

ـ الأكاديمية.... جاءت .... إلى هنا

ـ ماذا..! هل جاءت الأكاديمية إلى هنا..؟ كيف جاءت..؟ من جاء..؟ ماذا يحصل..؟

هذه الكلمات كانت أسئلتي اللاشعورية، خرجت فجأة من بين شفتي دون أي تفكير (تايهان يتابع حديثه):

ـ هذا الخبر يجب أن يبقى هنا بالتأكيد، لا أحد يعلم بهذا الموضوع إلا عدة أشخاص. جاء القائد إلى هنا البارحة بصورة فجائية، حتى اللحظة الأخيرة لم يكن لأحد خبر بمجيئه إلى هنا وقد ذهب رفيقان لاستقباله في المطار. سيبقى الآن في بيت جيرنيوفسكي وغداً صباحاً سنذهب أنا وأنت

وفاطمة إلى نفس المكان. كم سنبقى، ماذا سيحصل..؟ هذا ما سيوضحه الزمن ومهمتنا الأساسية هي حماية القائد. البارحة عقدنا اجتماع الإدارة و تم تعين الرفاق الذين سيرافقون القائد، اقترحناك من بين رفاق إدارة القرية ووجد الرفاق ذلك مناسباً، لهذا استدعيناك.
كلمات تايهان كانت الجواب لكافة أسئلتي واستفساراتي التي مرت في تفكيري، الواحدة تلو الأخرى وعمّ جسدي حرارة شديدة عندما سمعت هذا الخبر.
ـ كانت فرصة و حظاً كبيراً أن أحظى برؤية القيادة و البقاء عنده و مشاركته في الحياة وخاصة هنا في هذه المنطقة.
إذاً القائد في موسكو وتكررت أسئلتي مرة أخرى وبدأت أفكاري تنهال من جديد.
لماذا قدم القائد إلى موسكو..؟ من يرافقه..؟ هل سيبقى فترة طويلة..؟ هل جاء بدعوة رسمية من الدولة..؟ أسئلة كثيرة كانت تشغل ذهني.
أجل كلام تايهان كان صحيحاً، فالأكاديمية جاءت إلى هنا، وما على إلا أن استثمر هذه الفرصة والاستفادة منها، لأن تلقي التدريب تحت إشراف وبهذا الشكل أمر غير عادي، وتايهان أيضاً كان يعيش نفس الشعور.
رغم أن تايهان من بينغول، لكنه قضى حياته في أنقرة، وفي ليالي الصيف الطويلة كنا نستغرق في حوارات عنها، لإنني أيضاً ولدت وترعرعت هناك. يوم في شارع "بايندر"، على الأرصفة القديمة، وآخر حول مقاهي "سقاريا" التي كان يتوافد إليها الثوريون، وثالث من مباني الوزراة الرسمية وحتى نصب الحثيين... حياتنا مهما تكن مرت في هذه المدينة، فإن تايهان ينحدر من عائلة غنية، يسكن في حي ثري لانقرة يدعى" أوران سيتاسي"، درس في جامعتها "الجامعة التقنية للشرق الأوسط" قسم التاريخ. أثناء السنوات الأخيرة لدراسته انضم إلى الكيريلا في زاغروس وعاش بعدها سنوات في ساحات الحرب. وخلال عبوره لنهر الزاب تعرض لحادثة؛ إذ سقط وجرح جرحاً بليغا. وعلى أثره خضع للمعالجة زمناً لا بأس به، وعند استدعاء ماهر من روسيا، قدم إليها كاداري مسؤول من الدرجة الأولى. بعودة ماهر إلى روسيا انضم إلى إدارة روسيا المؤلفة من خمسة أشخاص وهو أيضاً لم يلتقي بالقائد

الطعام مستمر...ستبقى بين الرفاق، وأنا سأكتب الرسالة وكذلك سأنظم الذهاب إلى موسكو من اجل العملية".
أجبت حسناً، وغادر القرية.
الاضراب عن الطعام كان مستمراً في ستوديو MED TV الموجود في القرية. زيّنا الجدران باللوائح، كتبنا على جميع الجدران وبأحرف كبيرة: "لن تستطيعوا حجب شمسنا". جميع العائلات في القرية والرفاق مضربين عن الطعام هنا. الجميع في شوق لسماع خبر من القائد...
كان تايهان غائباً عن الأنظار منذ عدة أيام، شعر المضربون عن الطعام بذلك لذا بدأوا يتساءلون: "أين الرفيق تايهان..؟ لماذا لا يأتي إلى هنا.؟"
كنت أبررها بالقول:"على ما يبدوا ان له مشاغل تنظيمية؛ فالقائد وظفه بالذهاب إلى المؤتمر السادس. انه يقوم بالتحضير لذلك".
في المساء جاء الرفيق تايهان، شكل جيمع الرفاق حلقة حوله، يسألونه أسئلة عادية:"أين انت..؟ لا نراك...". يجاوبهم:
"أنا هنا الآن...كانت لدي أعمال منذ أيام". استمر النقاش فيما بينهم. ثم اخذني إلى خارج الزحام، بدأنا النقاش:
ـ إن سمع القائد بهذه العملية كيف سيستقبلها..؟ كيف سيفكر..؟
لم أعطِ الجواب، كنت اريد الاستماع إليه لذا تابع تايهان مبتسماً.
ـ "رفيق سيدار انهيت الكتابة، وفي نهايتها كتبتُ شعراً أيضاً، لقد أصبح رائعاً. اعتقد ان قرأتموها ستعجبكم جميعاً".
عندما كان تايهان يتحدث أحسست بألم يوخزني، كأنه خنجر انغرس في قلبي؛ كان يتكلم من داخله، كأنه هو الذي سينفذ العملية... لا هذا الامر مستحيل، فقط كتب لمساعدة الرفيق جهاد.... ثم ان القائد كلفه بمهمة لأجل المؤتمر ...لا .... لا... كيف أبعد هذه الافكار التي تحلق في سمائي... اما وتلك الكلمات... "كتبت شعراً أيضاً، انني متأكد انكم ستعجبونها جداً". وكأنه يريد اخبارنا بشيء أو ان يقول شيئاً أو ربما انني أنا الذي اظن ذلك.
كان ينظر اليّ بنظرات عجيبة وذات مغزى. هل يريد الافصاح عن شيء ما، لم يقله..؟

عميقة في داخله وبدون ان يكون من تأثير أحد، اذا كان يريد تأكيد ارتباطه بالقرار، إن كان يثق بارادته الحرة فليس لدي ما أقوله...".
قال جهاد مبتسماً:"حسناً، ماذا يتطلب مني لأفعله لاسمع العالم جميعاً بهذه العملية، ولأحولها إلى عملية حزبية... ؟"
قلت له بصوت مرتجف: "في البداية لا بد من رسالة للقائد، وأن تضم أقساماً وعهوداً تنادي الشعب وقوى المؤامرة...". تدخل تايهان في الحديث قائلاً:
ـ حسناً سأكتب الرسالة مع الرفيق جهاد، لكن يتطلب تثبيت مكان العملية... أيهما أكثر تأثيراً ياترى.. الساحة الحمراء، أم أمام الدوما..؟"
قلت:"أمام الدوما ستكون أكثر تأثيراً، فللدولة الروسية نصيب كبير في الوضع الذي آل إليه القائد. وان حصلت هناك فستكون جواباً ورسالة لهم أيضاً".
تايهان:"إن استطعنا تصويرها بكاميرة فيديو فان التلفزة ستعرضها للعالم أجمع، وبذلك سيشاهدها العالم كله، هذا مهم جداً. صرخة من نار، سيسمعها الشعب الكردي والعالم والقوى المتآمرة بواسطة الإعلام"... ـ
ترسخت الفكرة في عقل جهاد ـ ثم تابع تايهان كلامه قائلاً: "سنأخذ آراس من أجل التصوير؛ نستطيع أن نجعله يصور العملية دون ان يعلم عنها شيئاً حتى اللحظة الأخيرة. أما مسألة الدخول إلى مكان العملية فاتركها ليّ سأنظمها حتى كتابتك الرسالة التي ستتركها". بهذا الشكل تم توضيح مكان العملية وكيفية تحقيقها.
جهاد:"في أقرب وقت" قالها وغادرنا.
بقيت مع تايهان لوحدنا نشرب الشاي الذي أعده تايهان بنفسه، كان يسحب من سيجارته أنفاساً عميقة. لقد بدأ التدخين فور سماعنا الأخبار عند رجوعنا إلى القرية. في السابق كان يفرط في التدخين، كنت انتقده بين الحين والآخر ليخفف التدخين، كان يجاوبني:
"السيجارة تهدأ قليلاً من إنفعالاتي". والآن في يديه السيجارة والشاي. قال وهو يرتشف الشاي:
ـ لربما اختفي عدة أيام، يجب ان اكتب رسالة الرفيق جهاد، يتطلب ان أفكر، وانت يجب ان لا تترك الرفاق في القرية لوحدهم، فالاضراب عن

من قبل. تحدث مع القائد عدة مرات في التلفون؛ أي يعرفه غيابياً. كان يمتلك مستوىً أيديولوجياً وسياسياً جيداً، بالإضافة إلى امتلاكه لاسلوب مؤثر وجذاب، لكنه رغم ذلك ينفعل أحياناً كطفل صغير، إذ كان يعبر عن مشاعره وأحاسيسه بقوله:" ابتسم الحظ لنا بعد سنوات" كان إنساناً يحيا بأحاسيس وعواطف قوية، فكان يقول: البقاء مع القائد هو في نفس الوقت فترة التدريب... لكي نستثمر هذه المرحلة يتطلب تنشيط وتفعيل كل عواطفنا وأفكارنا".
كان الصباح باكراً، ولا بد من انتظار صباح اليوم التالي من أجل التحرك. قضينا ذلك اليوم بتحضيرات نفسية وفكرية وعاطفية لِمَ سنعيشه، وما ستضيف لوناً جديداً لحياتنا.
شجرة السنديان باسقة جذوعها الغليظة على سفح جبل شامخ وفي قمته رجل كهل شعره الأبيض يلامس كتفيه، ويظهر من تجاعيد وجهه إنه يعرف ما يعيشه في الحياة " لقد حل أسرار الحياة". يوجد سكون في طوره وصدى أحاديثه تصل إلى عنان السماء. نبرات صوته تسحر الإنسان وتجذبه، ويخلق لك رغبة دائمة في الاستماع. يقف متكأ على عصاه الطويلة وعيونه الترابية تنظر لزرقة السماء اللامتناهية، منصتا للطبيعة. وفي الحال جلست القرفصاء ـ على التراب ـ بجانب الرجل المسن باهتمام كبير، اتفحص شعره الأبيض الطويل المتطاير مع الرياح، وتجاعيد وجهه المليئة بالتجارب وشجرة السنديان المنتصبة بجواره، بجذعها الثخين واغصانها الكثيرة وأوراقها الخضراء العريضة، وهي سامقة نحو السماء. وفي لحظة أنزل الرجل الكهل عينيه الترابيتين من السماء موجهاً نظراته الثاقبة إليّ وبدأ يتحدث وهو ينظر إلى شجرة السنديان. صدى حديثه كان يرتد من الجبال الأخرى وهو يتحدث مشيراً بيده إلى شجرة السنديان:
"الثقافة الإنسانية تشبه شجرة السنديان الراسخة جذورها في أعماق الأرض. بذور القيم الإنسانية منتشرة في أطراف الدنيا الواسعة، إن قطعت فروعها أو حتى جذعها سينمو مجدداً على جذورها العميقة... هاهي جميع الالام التي شهدناها. لنكن لائقين بهذه القيم المقدسة...".

استيقظت على صوتٍ؛ "صباح الخير..! صباح الخير..!" في وقت كانت أصداء كلمات صاحب الشعر الأبيض لاتزال تتردد في عقلي.
علينا أن نتحرك هذا الصباح، والذهاب إلى القائد، كلما تذكرت هذه الكلمات يزداد قلبي خفقاناً. استيقظ تايهان أيضاً وشربنا الشاي بعد إنهاء الفطور. ماهر وفاطمة أيضاً حضرا. فاطمة لم تكن طبيعية، فهمت من حركاتها وإضطرابها ان تايهان قد أخبرها بموضوع ذهابنا وهي من كرد كازاخستان. انضمت إلى الحزب مع زوجها ولها ثلاثة أطفال، أكبرهم تذهب إلى الثانوية، وطفليها الصغيرين المتبقيين يتلقيان دروساً في الفلكلور والبيانو مع مجموعة بنفس أعمارهم في القرية. لم يتكلم أحد في البيت بخصوص المكان الذي سنذهب إليه، لا ماهر ولا فاطمة. بعد فترة وجيزة خرج ماهر وعلى الفور قال تايهان:" جهزوا حقائبكم نحن ذاهبون، فحملنا حقائبنا وهبطنا الدرج.أحسسنا برياح باردة تلفح وجوهنا، لأن الطقس لا يزال بارداً. بعد وضع الحقائب في الصندوق الخلفي للسيارة، جلست فاطمة في المقعد الأمامي، أنا وتايهان جلسنا سوية في المقعد الخلفي وماهر يجلس وراء المقود في الـ" لاندروفر" بعد تشغيله.
كان هذا لقائي الثاني مع ماهر، لأنه لم يكن موجوداً عندما أتيت إلى روسيا قبل سبعة أشهر، فالحزب كان قد استدعاه آنذاك وكان تايهان يقوم بإدارة التنظيم في روسيا. في الشهر الرابع عاد ماهر إلى روسيا وأخذ يدير العمل التنظيمي مرة أخرى. رأيته مرة قبل الآن، عندما أتى إلى القرية، لم نتحدث أبداً وإنما حدق فيّ من بعيد وكأن روح حاله يقول: "ومن هذا.." مهما يكن، هو يعرف جميع الكوادر المتواجدين في روسيا، وأنا وجه جديد واليوم هو لقاءنا الثاني. كان صوته ركيك النبرة ونظراته متعالية عن الإنسان، رغم أني لم أسعى الوصول إلى إصدار حكم مبكر، ولكن هذا ما ينطبع في ذهني للوهلة الأولى. الوصول إلى حكم مسبق قبل معرفة الشخص بالتأكيد يخلق فيما بعد صعوبات لبناء العلاقات، وليس سهلاً قط تحطيم الأحكام المسبقة،مثلما قال أينشتاين: " تحطيم الأحكام المسبقة أصعب من تحطيم الذرة". لكنني كنت مبدئياً دائماً وأبداً فيما يخص العلاقات الإنسانية، لكن ما سأشهده فيما بعد سيدعم هذا الحكم.

الاحتمال الكبير انها جاءت من القرية المجاورة، في البداية ذهبت لجميع الغرف إلا انها طردت وحتى ضربت... تايهان منع المعاملة السيئة للقطة ووضعها في غرفته. منذ ذلك اليوم والقطة تبقى في غرفته. اصبحت تعرف تايهان تتبعه حيثما يذهب، كان يحمل القطة في حضنه بتودد.
بعد فترة قصيرة حضر جهاد أيضاً وهو يبتسم والضوء يشع من عينيه. دخل الموضوع مباشرة: "هل ستساعدني في العملية التي سأقوم بها..؟!".
ـ اعطاء القرار لعملية كهذه.(كنت ألاقي صعوبة في الحديث) رفيق جهاد هل تعرف ان هذا النوع من العمليات يرفضها القائد، وانت أيضاً تابعت الأخبار.
ـ "أعلم، ولكن القبض على القائد بعد خروجه من هنا يعني أن روسيا أيضاً تشترك في هذه المؤامرة، يجب ان نصرخ في وجه قوى المؤامرة الدولية لتدرك بان القائد ليس لوحده، وهذه العملية ستكون صفعة لروسيا أيضاً.."
ـ " ولكن يا رفيق جهاد....".
قطع كلامي وتابع كلامه:"هل ستجعلون هذه العملية رسمية في التنظيم..؟ ان حولتموها إلى عملية حزبية فانها ستكون ذات فائدة كبيرة للحزب وللتنظيم، أما ان لم تفعلوا ذلك سأحرق نفسي ثانية، لانني بذلك سأريح ضميري ووجداني على الاقل... وسأكون مرتاح البال...واعلموا هذا أيضاً؛ إنني افهمكم جيداً..هذا القرار ليس قراراً لحظياً وعاطفياً، انه أمر من قلبي وعقلي ..! صرخة وصوت نابع من ذاتي... توقيتها هو يوم إظهار ارتباطي بالقائد من خلال هذه العملية. سأظهر للعالم اجمع تلك الارادة التي خلقها آبو، الإنسان الذي خلقه آبو، من أجل خلق ذاته، من اجل الشعب، من اجل كافة القيم الإنسانية، سأظهر كيف سأصبح صرخة من النار...!".
تايهان كان ينظر إلى عيون جهاد الثاقبة والمليئة بالإيمان والثقة.
لم أعد قادراً على إيجاد كلمة لأقولها، لم أستطع أن أجد أي شيء، إذ انها ستكون عديمة المعنى أمام هذه الكلمات. هكذا كنت أنظر إلى تلك العيون المصممة... وجهاد ينتظر ما سأقوله. قلت: إذا أحس الإنسان بحاجة

نظر اليّ بنظرات تنتظر مني بعض الكلمات، ولكن ما عساي أن أقول. تفوهت: أعرف، هل طرق الاقناع مغلقة تماماً..؟ فهناك تصريح القائد فيما بعد...

-"تعال إلي في المساء، سيأتي جهاد أيضاً ولنناقش سوية، لا تتأخر، ولا تنسى أن أحداً لا يعرف ذلك..."

قالها وأفترق عني، حركت رأسي موافقاً. أحييت شكل جهاد في عيني أثناء رجوعي لمكان الاضراب عن الطعام؛

إنه أحد الرفاق الذين عرفتهم عندما أتيت إلى موسكو؛ جهاد رفيق متوسط القامة، حنطي البشرة شواربه مهيبة، نظراته ساكنة وهادئة، من سرحد. انضم للكريلا في سرحد، قاتل في أصعب مناطقها التي تمتد حدودها حتى أرمينيا، في الأوقات الصعبة كانوا يعبرون الحدود إلى القرى الأخرى. في احدى المرات عندما شدد العدو من ضغطه، عبروا الحدود، لكن القي القبض عليهم من قبل حرس الحدود. بقي مع رفاقه في سجون أرمينيا عدة سنوات في ظروف صعبة. لذلك فان صحته سيئة، لكنه رغم ذلك يدير الفعاليات بين الجماهير إلى جانب تلقيه للمعالجة. فالفعاليات والتعامل مع الشعب تمنحه معنويات عالية. كان يظهر هذه العاطفة من خلال قوله:"ابناء هذا الشعب"، وحتى الآن أدار الفعاليات التنظيمية في أكثرية مناطق روسيا، وآخرها كانت في كازاخستان. أما مجيئه إلى القرية فلم يمر عليه سوى مدة قصيرة، انه يتلقى العلاج، إلى جانب اهتمامه بالصغار والكبار؛ يعلمهم ويتعلم منهم.

في المساء ذهبت إلى غرفة تايهان، كان يسقي الورود الموجودة في أنحاء الغرفة، فهو يحب الورود كثيراً لذا كان يعرف جيداً اسم كل وردة، وكيفية الاعتناء بكل واحدة منها. وكلما يخرج من القرية كان يقول لي "لا تنسى اسقاء ورودي".

كذلك توجد سلسلة أشرطة الموسيقى الكلاسيكية، الأوكسترا، السيمفونيات، أشرطة لبيتهوفن، لغيتارو، لبراهمس... لقد كان عاشق الموسيقى الكلاسيكية، والآن يعزف شوفان على البيانو... يحب الشاي الثقيل ولا يستسيغ غيره، لذلك كان يعد الشاي بنفسه مثل بانفيلوف، في غرفته قطة بيضاء طويلة الشعر، ليس معلوماً لمن هي ومن أين أتت،

كنا نذهب، لكن لاأعرف إلى أين وكم سيستغرق الطريق من الوقت..؟ ماهر وحده يعرف الطريق. الصمت يسود السيارة ويدرك الإنسان من هذه الاجواء انه من الخطأ السؤال حول وجهتنا. يتصاعد من المسجلة صوت دلشاد وهو يعزف على موسيقى كلاسيكية ومع هذه الموسيقى، كان الجميع ينظر إلى الخارج، نفكر بما ينتظرنا من مجهول وكثيراً ما كانت تظهر أحاسيس مشتركة. كنا نسلك طريقاً جميلاً كالخيال، ولكنه نحو الحقيقة. بمرور كل دقيقة يزداد الهيجان حدة، بدأنا نحس بارتفاع حرارتنا وتغير لون وجوهنا، فإحمرت وجنتا تايهان. تفحصت وجنتي بيدي، لم يكن وضعي مختلفاً وكثيراً ما تحدثت عيوننا أنا و تايهان عندما كانت تلتقي، نستقرأ الملامح ليظهر التشابه فيما كتب.

كان التوتر واضحاً على ملامح فاطمة، لكن ماهر هو الوحيد الذي يظهر وكأنه غير مكترث، يحرك مقود السيارة، يتحدث عن سائقي السيارات الذين يمرون بجانبه بصوت منخفض وكأنه يتحدث مع نفسه. إضافة إلى أنك لا تستطيع قراءة أي شيء على ملامح وجهه، عيونه باهتة كالجليد...تتابعت الدقائق ونحن نسلك الطريق بين أحياء موسكو. مرت أكثر من نصف ساعة ولا أثر حتى الآن يدل على المكان الذي سنذهب إليه. موسيقى دلشاد لا زالت مستمرة، لكن المقطوعة أصبحت أكثر حيويةً. إنزوينا من الشارع العام ودخلنا في زقاق، أين نحن..؟ لا أحد يعلم بعد.

ما نعلمه في هذه اللحظة هي أننا في إحدى أماكن موسكو، وبعد فترة خفف الجيب سرعته، إلى أن توقف أمام الغرفة الأمنية لبوابة المجمع السكني الراقي. ميزتُ الضيوف الخاصين من خلال فسحات الباب الحديدي العالي ولكن ليس بالشكل الواضح، كانت تبدو السيارات الحديثة على اختلاف أنواعها. وبعد انتظار قصير، فتح الباب الأسود ذو القضبان الحديدية أوتوماتيكياً؛ الواضح أنه ذو نظام مغناطيسي. قلت في نفسي" يبدو أن هذا هو المكان المقصود" ازدادت حرارة جسمي، حتى بدأت أحس وكأنه سيحترق، وغاب توازن خفقان القلب الذي بدأ ينبض بسرعة وكأنه يريد أن يقفز من صدري. لم يختلف وضع تايهان عني كثيراً، حتى ربما كان أشد تاثيراً، لكن وضع فاطمة أكثر هدوءاً قياساً بنا.

صادفنا عند دخولنا المجمع السكنى طوابق متشابهة خاصة بالضيوف، أبنية، سَيارات، فتيات حسناوات، رجال أنيقين، سرنا داخل المجمع وتوقفنا أمام مبنى خاص بالضيوف ذو ثلاث طوابق وهنا خرجت الكلمة الوحيدة من فم ماهر"وصلنا". أمام الباب مباشرة ظهر رجل أشقر لم أعد أتذكر مواصفاته، يحمل في يده جهاز لاسلكي ويلبس بدلة مدنية، فقال ماهر: إنه من عناصر حماية جيرينوفسكي.

أجل وصلنا، رؤية القائد أصبحت مسألة لحظات، نزلنا من السيارة وأخرجنا حقائبنا من صندوقها الخلفي. تقدمنا ماهر متحدثا مع الرجل الأشقر في أمر ما، ثم التفت إلينا قائلاً: تعالوا قدماي تعبتا ولاقيت صعوبة في المشي، حتى لم أستطع الدخول لذهولنا وجهلنا بكيفة التصرف إن دخلنا. فدخل ماهر، نحن بدورنا إنتظرنا أمام الباب فترة، بعد لحظات عاد ماهر وهو يفتح الباب وبشيء من الضيق قال: ادخلوا.

أول ما لمحته عند دخولنا، لوحة زيتية كبيرة لجيرينوفسكي معلقة على الحائط وأمام المدخل بثلاث أو خمس أمتار هناك درج خشبي أصفر حلزوني يتصل بالطابق الأعلى. وصلنا إلى صالون واسع جداً وعلى يميننا مطبخ من الطراز الأمريكي الفاخر، أدواته ورفوفه ملونة وعلى يسارنا مجموعة مقاعد مغطاة بالجلد الأسود، والأرضية مفروشة بلون أصفر براق، فالمكان برمته يلمع. جلسنا حول الطاولة المستديرة الموجودة بجانب المطبخ الأمريكي، فغدوت أقرب إلى تلك اللوحة، حينها قلت في نفسي:"انظر إليه..! لقد صنع لنفسه لوحة".هناك رجال حماية روس يشبهون الرجل الذي قابلناه عند الباب. منهم من يجلس ومنهم من يتمشى داخل البيت وبرفقتهم أجهزة لاسلكية، يمعنون النظر فينا باهتمام مثير ونحن بدورنا نمعن النظر فيهم. خرجت فتاة من المطبخ نحونا وكلما اقتربت بدت وجهها مألوفاً، وأخيراً عرفتها؛ إنها روزين؛ فعندما كنت أتلقى التدريب في اليونان عام ١٩٩٦ كانت هي تعمل في العلاقات الدبلوماسية، تعرفت عليها لأشهر عدة، لكني ذهبت إلى تركيا لخوض الفعاليات بعد نهاية التدريب، وهي بقيت عدة سنوات في اليونان. تعرف اليونانية كلغتها الأصلية. مرت ثلاث سنوات على هذا الكلام، وهي الأخرى اندهشت عندما رأتني. تصافحنا وبدأت الأسئلة والأجوبة المعتادة

أخرى أنتظر حديث تايهان. وبعد برهة بدأ الحديث: "هناك اقتراح لأحد الرفاق، أردت معرفة رأيك أيضاً". كنت أنتظر بشغف ما سيقوله تايهان لكنه أضاف: "يجب أن يبقى حديثنا سراً، وألا يعرف به غيرنا نحن الاثنين". كلامه هذا زاد شغفي أكثر، حركت رأسي دلالة الموافقة.

-"أحد الرفاق اقترح بأن يحرق نفسه".

-"من ..؟ أي رفيق..؟.

- "انه الرفيق جهاد. في الحقيقة انه ليس اقتراحاً لانه قرر ذلك، وهو مصمم على تنفيذها. ورغم جميع محاولاتي لاقناعه للعدول عن رأيه هذا، يقول: "سأحرق نفسي من أجل القائد، افعلووا ما يحلو لكم، يجب أن يسمع العالم كله صوت مكاننا هذا".

الجو بارد لكن هذا الموضوع الغريب لم يدعني أشعر بالبرد. كنا لا نزال نتابع المشي، أوضحت رأيي بالقول: "رفيق تايهان، تابعنا الأخبار سوية، وفيها أظهر القائد وبكل طلاقة موقفه من هذا وأكد عليها عندما قال بأنه يجب ان تتوقف جميع اشكال هذه العمليات، واظهر أيضاً عدم رضاه عنها. ضع هذه الأخبار جانباً، فانت تعرف أيضاً ان للقائد تحليلات اجراها عندما كنا عنده. كان يقول عن هذه العمليات"حولوها إلى عمليات الحياة".

بعد ما استمع تايهان بدقة. قال:"أعرف، وكلمات القائد لا تزال تتردد على مسمعي. لكن وكما أقول بأن الرفيق قرر ذلك في نفسه. ان ما تعلمته خلال هذه السنوات داخل الحزب هو تحليل نفسية الإنسان، فهمها ورؤية خلفية الكلام والحديث، وقراءة لغة العيون. هل تعرف يا رفيقي، إنني رأيت في عيني جهاد ثقة كبيرة بالنفس، وارتباطاً بالقرار الذي اعطاه، كلماته وإصراره ليس هباء أو هراء؛ انه يتكلم الحقيقة مثلما تنبع في داخله، رغم نقاشنا لساعات واظهاري لتحليلات القائد، كنا نصل لنفس النقطة. يناقش وهو يركز كلامه على"سأحرق نفسي". هل تعرف ماذا يقول..؟ ان لم تساعدوني لاسماع صوتي، سأجد الفرصة وأحرق نفسي في أقرب وقت وسط القرية ولكن لا أحد سيسمع صوتي حينها..! هذا ما يقوله: عليك فهم الوضع بهذا الشكل..."

تأخذوني إليه..؟. انه قائدي، انني احبه جداً...!". كان يمسح عينيه الباكيتن اثناء حديثه... داعب تايهان شعره بحنان، هو الآخر امتلأت عيناه، لكنه تمالك وقال:"لا تقلق، لن يحصل له مكروه، لن نسمح لهم بهذا. اننا جميعاً نحبه كثيراً، حسناً..!". مسح الطفل الصغير عينيه المبللتين من جهة، ومن جهة اخرى كان يحرك رأسه الصغير وكأنه هو الآخر يقول حسناً.

عند المساء كانت الأخبار تشمل العديد من أنباء العمليات؛ فالشعب الكردي يقوم بالمظاهرات في جميع أنحاء تواجده في العالم، تحت شعار "لا تستطيعون حجب شمسنا"، اضافة إلى عمليات الاضراب عن الطعام، مسيرات، تجمعات،... والذين يحرقون أبدانهم...".

كيف يستطيع انسان ان يحرق نفسه بارادته ورغبته..؟ أية قوة وإيمان يوصل الإنسان إلى تنفيذ عملية كهذه..؟.

تحدثت القنوات الأجنبية قائلة:" بهذا القدر وبهذا الشكل لم يقدم الناس حياتهم من أجل النبي عيسى، ألا يدرك بأنه يذهب إلى الموت، من أجل شخص يحرق نفسه بهذا الشكل...".

كان العالم في حيرة من أمره؛ هؤلاء الناس الذين خلقهم آبو يظهرون ارتباطهم به حتى الموت. ما هذه العاطفية وكيف تتجسد..؟.

يصعب على الإنسان ان يفهم هذه العاطفة وهذا الشعور قبل ان يغدو لهيباً وناراً.

انضمت القرية إلى العمليات المستمرة، بالاضراب المفتوح عن الطعام. كنا نريد ان نسمع صوتنا أيضاً بهذا الشكل. الاطفال الصغار أيضاً رغم محأولاتنا الكثيرة لمنعهم كانوا يقومون بالاضراب بسرية....

آذان الجميع تنتظر الأخبار بلهفة. كنا نريد ان نسمع خبراً أيجابياً عن وضع القائد الصحي. في أخبار المساء كان هناك تصريح على لسان القائد: "يجب ان تتوقف عمليات الحرق بالتاكيد لان القائد لا يقبل هذه العمليات التي تحدث باسمه، بل يجب تحويلها إلى عمليات الحياة الصحيحة".

في الصباح الباكر جاء تايهان إلى المكان الذي كان يجري فيه الاضراب عن الطعام، قال:"تعال، لنتمشى في الخارج. كان الجو بارداً وكنا صامتين، أستمع إلى صوت الثلج الصادر من تحت أقدامنا، من جهة

في مثل هذه اللقاءات وفجأة قالت: "القائد يستعد في الأعلى وسيحضر إلى هنا بعد قليل".

بعد هذه الكلمات رشفنا الشاي، ونحن ننتظر القائد، ساد الجو صمت كئيب، فلا أحد ينبس ببت شفة والجميع ينتظر تلك اللحظة بهيجان شديد. قوة جاذبة متشكلة من الحزمة الضوئية، معبد مقدس تذوب في داخله كافة الظلمات وعليه فالخروج أمام قدسيته ورؤيته واستشعاره يخلق زوبعة غامضة في سُكنات روحي، وكأنما عواطفي تعيش في هذه اللحظة الفصول الأربعة معاً. في نفس اللحظة وأثناء التنزه داخل الربيع الأخضر، مواجهة ضوء المعبد المقدس يخلق هيجاناً وخوفاً كبيراً في نفسي. الحقيقة إني قريب من أنفاسه الحارة التي حلمت بها وتخيلتها منذ سنوات. أصبحت مضطرباً أحاول التحكم بأحاسيسي رغم كل شيء، فالموقف صعب للغاية. كنت آمل أن ينتهي الانتظار لحظة قبل أخرى، لتسكن العاصفة الناجمة عن العواطف المركبة.

صعدت روزرين إلى الطابق العلوي ورجعت بعد برهة لتقول: "القائد يستعد، سيأتي بعد قليل" وبناء على هذا الخبر بدأنا الانتظار واقفين على الأقدام. عيناي تعلقتا بعيني تايهان الذي كان يبدو أنه يعيش حالة صخب ولا استقرار في روحه، فالعيون هي الوحيدة التي تكشف صاحبها. كان العرق يتصبب من جبين تايهان وعيناها توحدت في نقطة واحدة أكثر من مرة... الاحترام لقدسيته...المعبر الوحيد في تلك اللحظة كانت عيوننا. لم يكن هناك حاجة لأي شيء آخر، لكن تعبيرات ماهر و روزرين تبدو أكثر اختلافاً، كانا يجاهدان ليتصرفا بارتياح.

ومع سماع الأقدام المتعالية من أعلى الدرج داهمتنا عاصفة هوجاء من العواطف. التصقت أعيننا بأعلى الدرج الخشبي الأصفر الحلزوني الهابط لنتمكن من التمتع بالمشهد. تعالى الصوت واقترب أكثر من الدرج، تجمدنا في أماكننا. بعد ثوان ستتحقق الرؤيا التي حلمت بطيفها لسنوات، كنت أحلم به وأدعو الله سراً من أجل رؤيته ولو مرة واحدة، ولكن عادت الحيوية لأجسادنا المتجمدة مع أول نظرة وأول رؤية.

ظهر أولاً حذاء من ماركة "مافيستو"، رقيق مصنوع لفصل الصيف، مع الخطوة الثانية ظهر بنطال أصفر فاتح من الكتان، وبطن متكأ بخفة فوق

حزام الخصر وقميص نصف كم من الخردل متممة للبنطال الكتاني الأصفر الفاتح...
يبدو واضحاً أنه أتى بدون معرفة لمناخ هذه المنطقة، فألبسته تتناسب مع المنطقة المعتدلة أو الحارة. نلبس المعاطف بينما القائد يقابلنا بقميص نصف كم. وأخيراً ظهر وجه تعلوه ابتسامة بريئة، حدقة عينيه أصغر بكثير مما تصورت؛ فهذه الحدقة الصغيرة هي التي جمعت الدنيا وشغلت الناس. على ملامحه سمات التواقين، واثق من نفسه مع هدوء شديد يصاحب وجهه المرح. تختفي حدقة عينيه وراء وجنتيه المنتفختين عندما يضحك، يذكرك بضحكة طفل صغير صاف. عليه سمات الحكيم الذي عرف أسرار الحياة المخفية، حاجباه غزاهما الشيب، وهناك تجعدات تتجه إلى جبينه. وجهه الصافي والطبيعي وحركاته الهادئة مكملة لبعضها البعض، ونظرات أكيدة ومتلهفة، قال مبتسماً وهو يقترب منا:" يوجد هنا رفاق يمكن الاهتمام بهم". هذه الكلمات أعادت النشاط ولو قليلاً لأبداننا المسمرة، تصرفاته الهادئة أراحتنا قليلاً... وقف القائد بيننا وصافحنا وقبلنا فرداً فرداً، ثم سألنا عن أسمائنا وعندما كان يصافح تايهان قال ماهر:" قائدي هذا هو الرفيق تايهان".
رد القائد:" إذاً أنت الرفيق تايهان، أليس كذلك".
بهذه الكلمات الحميمة يهتم القائد بمن يخاطبه. فالقائد يعرف تايهان من خلال تقاريره المطولة حول المشاكل والأزمة التنظيمية في روسيا. جاءني دور المصافحة، عجباً هل أرى حلماً أم أنه خيال..؟ يدا القائد الحارة ونظراته العميقة المؤثرة في الإنسان وسخونة وجنتاه المنتفختان، حقيقة بحد ذاتها وأثناء مصافحتنا، قال تايهان: "قائدي هذا هو الرفيق سيدار ".
كان صوت تايهان يخرج من فمه متقطعاً وكأنه سيغمى عليه. تبلل وجهه بالعرق الذي إمتد حتى شعره الأبيض، إنها المرة الأولى التي أرى فيها تايهان على هذه الحالة، فقد كان يعكس عواطفه وحيويته الرفاقية وارتباطه بالتنظيم وثقته بذاته على أسلوبه وتصرفاته وكان هذا أصلاً هو علاقة التقدير والاحترام للقيم، ولكنه غدا منكمشاً الآن. الإنسان القديم في التاريخ كان يبدي تقديره ويظهر إحترامه وإرتباطه بما أوجدوه من آلهة

المجاورة التي تبعد نصف ساعة سيراً على الاقدام... اتبعنا الطريق المنحرفة حسب سهم "سولناجني"، وصلنا القرية بعد مدة قصيرة. أزدحم الرجال والشباب والاطفال حول السيارة عندما شاهدوها تدخل القرية. استقبلونا بوجوه باردة متجعدة ومتجهمة... اندهشنا..! لما كانت عليه الوجوه، وتساءلنا لماذا يا ترى..؟.
ولكي يفهم تايهان سبب هذه البرودة قال:"ماذا حصل أيها الرفاق..؟ لما وجوهكم متجهمة بهذا الشكل..؟. أجابت احدى الفتيات "أليس لكم خبر..؟"
- وأي خبر..؟.
- ألقوا القبض على القائد؛ قبضوا عليه في إيطاليا.
- كيف حصل..؟ عندما ودعنا القائد كان قد استدعي بشكل رسمي... جاء الأصدقاء من إيطاليا.
- جميع القنوات التلفزيونية تعرض كيفية إلقاء القبض على القائد.
خرجنا من داخل الحلقة، واتجهنا نحو البيت ذو الطوابق الثلاثة الموجودة عند مدخل القرية حيث يوجد فيه التلفاز. فتحنا التلفاز الذي كان قد بدأ للتو في قراءة الأخبار: "عندما أراد آبو أن يذهب إلى إيطاليا من روسيا تم حجزه في المطار وهو الآن رهن التوقيف". بقينا مسمّرين، الدهشة لم تسمح بخروج كلمة واحدة من فمنا... لقد أصابتنا الصدمة بكل معنى الكلمة؛ فبعد الأحداث المتكاثفة والمتتالية التي مرت علينا في الشهر الماضي، من دهشة وفرحة وحيرة وحزن وتعلم، دخلت احساسيسنا مرحلة الفناء والانهيار بهذا الخبر الأخير. اذ لم يكن ذلك في الحسبان. انقلبنا رأساً على عقب، لم يتلفظ أحد بكلمة. أما تايهان فكان يدخن السيجارة تلو الأخرى.
في القرية اطفال صغار، منهم من يذهب إلى المدرسة وآخرون ألحقوا بدورات تدريبية على الغيتار والبزق والفلكور والباليه. فيهم الشقر والسمر، لهم عيون زرقاء، الواحد منهم اجمل من الاخر. كلما رغبوا في رؤية تايهان يذهبون إليه، فمن المؤكد انهم يعثرون على شيء ليتحدثوا معه، وتايهان يحاول دائماً تعليمهم أشياء جديدة، يهتم بهم ويحبهم. جاء طفل عمره بحدود ٤-٥ سنوات إلى تايهان وهو يفرك عينيه الزيتونيتين، وبصوت رفيع ومرتجف قال:" ماذا فعلوا بقائدنا، انه لم يؤذِ احد، لماذا لم

رقصة النار

الثلوج تغطي ببياضها كل مكان على امتداد النظر، مُشَكلةً لوحة منسجمة مع اشجار الصنوبر الخضراء الطويلة. أغصان الاشجار انحنت نحو الاسفل تحت ثقل الثلج المتراكم عليها، والشوارع خالية. نسير في طريق يمتد في البياض ليذوب في الأوفق. زلاجات السيارة كانت تنظف الثلج الهاطل مثل القطن. هذه الماسحات تعمل بشكل متقطع عندما تصبح الصورة غير واضحة والحزن يطغى على القلوب.

لم نكن قد هنئنا من العيش مع القائد، حتى وخزتنا آلام الفراق الاضطراري. لكن الفرحة أيضاً تختبئ في القلوب... لانه تم العثور على قطعة أرض في أوروبا، يستطيع القائد الذهاب إليها. القوة في القلوب... في النضال لسنوات من أجل خلق الإنسان الجديد والمجتمع الجديد. أجل ناضل لنكون أناساً كالاخرين، كان خلقاً تغار منه الالهة. انه انسان خلق لوحده الملايين وحمل القلوب في قلبه.

لم يكن إلهاً...!

معرفة نمط حياة هذه القوة، والعيش معها فترة تاريخية، تشكل بحد ذاتها قوة تمنح المعنويات التي هزت عقولنا.

الفرحة تطغى على عواطفنا... لانه وجد مكانٌ آمن وسليم للقائد.

كنا نسير نحو القرية، وفي الطريق تتناثر تلك الاكواخ الملونة والمؤلفة من عدة غرف. وكلما ابتعدنا عن مركز المدينة تحل هذه الاكواخ الملونة المحاطة بحدائق صغيرة وأسوار خشبية ملونة، محل الأبنية الاسمنتية. على جانب الطريق توجد عدة قرى متشابهة البيوت.

اقتربت السيارة من لوحة رسمت عليها اشارات سهمية؛ على احدى الاسهم كتبت إلى اسكرا. والثانية إلى سولناجني. رغم اننا نقول عنها قرية الكرد، الا انها تكتب على اللوحات سولناجني. اما اسكرا فهي القرية

بالمثول أمامها وعبادتها، لأنها تعطي أهمية لسجية التصرف. والانكماش الذي بلل شعر تايهان الأبيض ما هو إلا تعبير عن المحبة والاحترام لما خلقه الآله، فالخلق خاصية تنفرد بها الآلهة فقط والقائد خلق الإنسان من جديد وأعطاه روح وذهنية جديدة. في البداية كوّن نفسه ومن ثم الآخرين ولكن ليس مثل خلق آدم من الطين، إنما خلق أناساً يمتلؤون عشقاً، يغمر قلوبهم ودماغهم قيمة للإنسان، فكلنا من صنع القائد وولاء تايهان تعبير عن الولاء لأخلاقيته.

بعد ما صافحنا القائد جميعاً، اتجه مباشرة نحو المقعد الجلدي الأسود وجلس هناك ودعانا قائلاً:" تعالوا، اجلسوا هنا"

ذهب ماهر وجلس هناك، لكني وتايهان بقينا مسمّرين في مكاننا وبينما كنا نفكر بكيفية الذهاب والجلوس، دفعتنا روزرين من أكتافنا قائلة:" هيا إذهبا واجلسا".

كل منا ينتظر الآخر ليخطو الخطوة الأولى وبعد انتظار قصير وأنا أفكر(كيف سنجلس، هل الجلوس أمر لابد منه..؟) خطى تايهان خطواته الأولى، جلسنا على أريكة تتسع لشخصين بمواجهة للقائد، على مسافة متران منه. على اليمين يجلس تايهان وأنا على اليسار، تفحّصنا القائد مدة ومن ثم وجه إليّ السؤال قائلاً:" متى أتيت إلى هنا، عن ماذا تبحث هنا..؟". إنتابني إضطراب من هذا السؤال وكأنني نسيت التكلم، لكن تايهان أنقذني قائلاً:" قائدي؛ لقد تلقى التدريب في اليونان عام ١٩٩٥ - ١٩٩٦ ، ثم تم فرزه إلى استانبول للقيام بالعمليات، بعدها ألقي القبض عليه من قبل السلطات، وبعد إطلاق سراحه جاء إلى هنا، وهو هنا منذ ما يقارب ثمانية أشهر والآن يأخذ مكانه ضمن إدارة القرية". هذه النجدة التي تشبه نجدة (الخضر) أراحتني ولكن الجانب الآخر الذي أثار انتباهي هو تخلص تايهان من إنكماشه وإنغلاقه.

- " كيف خرجت من السجن..؟

- " قائدي؛ العوامل الأساسية في إطلاق سراحي هي أن جهة الادعاء كانت شخصاً واحداً، بالإضافة أنهم لم يعثروا على الدليل المادي الكافي، كما أن المرحلة السياسية لتلك الفترة....." وتوجه القائد بالسؤال إلى فاطمة: من أين أنت..؟

ماهر أعطى الجواب بالنيابة عنها، لأن فاطمة لا تعرف التركية:
ـ " قائدي؛ إنها من الكرد الذين تم نفيهم إلى كازاخستان في القرن الثامن عشر وعائلتها في الحزب".
ركز عينيه على نقطة معينة لمدة من الزمن سارحاً بخياله وبعد برهة إلتفت إلى تايهان قائلاً:
" أحياناً وفي لحظات يتم إتخاذ القرارات التاريخية، مثلما نحن عليه الآن تماماً، حيث لم أفكر في ذلك أبداً. جرني التاريخ إلى هنا، فلا أنا ولا أنتم كنتم تنتظرون هذا المجيء، والآن سنعمل من هنا لإعطاء إتجاه للتاريخ".
بعد لحظات من الصمت أردف قائلاً:" قمنا بحملة متأخرة، بخروجنا من أنقرة تحولنا إلى حزب، وبخروجنا إلى الشرق الأوسط تحولنا إلى جيش، وبانفتاحنا على العالم، سنتحول إلى دولة... كنت أريد تحقيق الخيال الذي راودني لعشرين سنة بالذهاب إلى الجبال، فالجبال بالنسبة لي أكثر جاذبية، ولكن كان لا بد لنا من الخروج".
(ملتفتاً إلى ماهر) وبصوت معمم قال بعدها:
ـ" أليس كذلك..؟ الجبال أكثر جاذبية، أليس كذلك..؟ كيف تتحملون الحياة هنا..؟".
انتظر القائد الجواب بنظرات عميقة ومستجوبة لماهر، بينما ماهر رجح البقاء صامتاً في هذه الفترة.
في هذه الأثناء كان أحد أفراد الحماية وهو رجل أشقر، ضخم الجثة، أزرق العينين، من عناصر الحماية الخاصة لجيرنيوفسكي، يقف في الباب موضحاً بالروسية بأنه تم تجهيز السيارات والاستعدادات اللازمة لنقل القائد ويتطلب منا الخروج، وبعدما ترجمت فاطمة ما قالوه، نهض القائد واقفاً وقال:" فلنذهب إذا".
لم يكن قد مر على مجيئنا سوى أيام، بالإضافة إننا لا نزال في بداية الحوار التعارفي، فإلى أين سنذهب..؟ سألنا أنفسنا أسئلة، لإزالة فضولنا، لكن الجو غير مناسب لانتظار الجواب في وضع كهذا، سنفهم بعد انضمامنا للوضع المستجد. الحقيبتان اللتان تحملان أشياء القائد الشخصية جهزتهما روزرين قبل مجيئنا. لهذا فالخبر كان مفاجئة لنا فقط.

وحيد أنا
استوحدت
لكني لم اخف
هي العزلة الرائعة
كعزلة وطني الضائع.
وعزلة شعب نسي نفسه منذ القدم.
كم هو جميل
وحدة بقدر وطني.
وبقدر شعبي الوحيد.

يجب ان تكون مستعدا لاحراق نفسك في لهيبك.
كيف ستجدد نفسك ان لم تصبح رماداً..؟

زرادشت

إطار دائري وضعها على عينيه، ووضع قبعة شبيهة بقبعات القرويين على رأسه، حتى بات من الصعب التعرف عليه بهذا الشكل، وهو الهدف المرجو من ذلك. مهما يكن فالعالم كله يعرفه، لكنه لا يلفت الانتباه بهذا الشكل. القائد صاحب قوة جذب كبيرة تشد الانتباه في كل مكان يذهب إليه. هذه الجاذبية تنطلق من قوته الروحية الخارقة، لكنه سيموه نفسه لأسباب أمنية... اذ ليس من المستحسن لفت الأنظار في الطريق وفي المطار.

خرج القائد ونحن خلفه. بعض السيارات التي مازالت محركاتها تعمل وقفت في الحديقة، بينما كانت عدة سيارات أخرى تتوقف خارج الحديقة وكلها سيارات سوداء. قال: "هل بقي احد في الداخل".

اجبنا:"كلا قائدي، جميعاً هنا".

كان الحزن يشع من عيونه. مشاعر وعواطف جياشة سادت الأجواء؛ عيون تايهان ممتلئة ومحتقنة انسابت منها الدموع رغم محاولاته في حبسها، وان لمستها فانها ستنساب مدراراً...

نظر القائد في عيوننا و.....

****

"حسناً، عشنا سوية فترة تاريخية؛ أعطيناكم دروساً تاريخية، لم يبق أمامكم أي عائق من أجل النصر..! من الآن وصاعداً الامر متروك لكم ومتوقف عليكم".

بعدها صافحنا القائد فرداً فرداً، قبلناه، تركت وجنتاه الحرارة على وجناتنا، وإتجه مباشرة نحو السيارة الواقفة في الحديقة. التفت للخلف وقال مبتسماً:"على أمل اللقاء في وطن حر.."

بعدها جلس في السيارة بالقرب من النافذة. تحركت السيارة، ومع تحركها رفع أصابعه باشارة النصر من وراء الزجاج الخلفي للسيارة، ولم ينزل أصابعه حتى توارت السيارة عن الأنظار....

بهذا الفضول بدأنا بمرافقة القائد على بعد خطوة منه، كنا مضطربين عاطفياً. عاصفة الأحاسيس هذه بدأت منذ اليوم الأول وستستمر عميقاً حتى اليوم الأخير.

أخرجت روزرين أشياء القائد الشخصية ووضعتها في إحدى السيارات قبلنا، لأننا كنا نراقب خلف القائد، فأعضاء الحماية الروس كانوا يرافقون القائد باحترام ممزوج بالخوف نحو السيارة التي سيركبها. كانت ثلاث سيارات سوداء متشابهة من حيث الشكل تنتظر وجميعها تحمل منبهات ضوئية زرقاء من الحجم الصغير فوق مكان السائق. كانت توجد ميزة للسيارة المتوسطة التي توجه القائد نحوها، فنمرة السيارة من ذوات النجمة أعطيت رسمياً من قبل أصحاب المقام في الدولة. توجه القائد نحو تلك السيارة وبدورنا اتجهنا نحو سيارة الجيب التويوتا التي خصصها لنا جيرنوفسكي. كان طاهر سيقود السيارة فهو يعرف بـ"السائق طاهر" القائد و روزرين ركبا نفس السيارة وخلفها مباشرة الجيب الذي ركبناه، أما ماهر لم يأتي معنا، لأنه فارقنا بسيارته.

السيارة التي تحمل القائد كانت اشاراتها الضوئية تعمل وبدأت السيارات بالتحرك مع تشغيل الاشارات الضوئية الزرقاء، تقدمت جميعها بانتظام، الواحدة تلو الأخرى وعندما اقتربنا من باب المجمع انفتح أوتوماتيكيا. نفترق عن مكان لا نعرف موقعه، متجهين نحو مكان مجهول، لا نعلم شيء عنه سوى إنه بيت جيرينوفسكي الخاص بالضيوف، لا نعرف إلى أين و لماذا سنذهب..؟! .

بعد مدة سألت تايهان بشيء من الاحتراز" إلى أين نحن ذاهبون ياترى..؟"

-" لا تستعجل ، سنعلم حال وصولنا، أنا أيضاً لا أعرف أكثر مما تعرف" طاهر أيضاً مثلنا، سيتبع السيارة التي تتقدمه أينما ذهبت. المنبهات الضوئية للسيارتان اللتان تسيران أمامنا والسيارة التي تسير خلفنا، في دوران. القافلة تسير مسرعة والسيارات التي تسمع أو ترى المنبهات تخلي الطريق مباشرة، لتفسح الطريق للقافلة، أكثرهم يفسحون الطريق خوفاً وبهذا الشكل انسد القسم اليساري من الطريق. كنا نسير دون أي عائق لأن المنبهات تظهر بأنها سيارات رسمية للدولة، وأولوية الطريق

لمسؤولي الدولة الكبار. هكذا كنا نبتعد عن مركز مدينة موسكو. مر على دخولنا الطريق ما يقارب الساعة، وفي تلك الأثناء خففت السيارات من سرعتها وانحرفت يساراً. مع دخولنا الشارع تراءت على جانبي الطريق ثلاث فيلات فاخرة، وعلى مسافة غير بعيدة يقف اثنان من قوات الحرس الخاص، إنهم لا يُدخلون أحد بدون تأشيرة دخول. من الواضح بأنه يعيش في هذا المكان أناس غير عاديين، فالمكان تحت الحماية، والمساكن متواجدة في بقعة صغيرة، بنيت حولها حائط عريض وطويل، مبنية في بداية غابة كبيرة للصنوبر ومن المحتمل أن يكون هناك أناس لا نراهم يعيشون في تلك الغابات. لهذه المساكن أشكال معمارية متعددة، ذات طابقين أو ثلاث، سطح بعضها مائل، لها نوافذ صغيرة مربعة الشكل، حدائقها أكثر جاذبية. بمجرد النظر لتلك البيوت، يظهر بانه ليس هناك أثر يدل على الحياة فيها قد يكون معظمها فارغاً، أو انها تستخدم في بعض الأوقات للعطل و الاستجمام.

كان للسور السميك الطويل بوابتان، اصطفت السيارات واقفة أمام باب كبير صنع من الخشب السميك، ما هي إلا لحظات حتى فتح أحد أفراد الحماية ـ الذين سيصبحون جانباً من حياتنا ـ الباب. حيثما ننظر نشاهد أفراد الحماية المتشابهين، ربما كانوا أشخاصاً مختلفين، لكنهم جميعاً شقر ضخام الجثة. دخلنا إلى حديقة المسكن المؤلف من ثلاث طوابق، الطابق الأخير سقفه مائل ويبدو من منظهره إنه جديد. أمام البيت يقف ثلاث من عناصر الحماية.

فور رؤيتنا للقائد، نزلنا جميعاً من السيارة ودخلنا البيت خلفه. بعد مدخل البيت هناك صالون كبير وعلى الجانب الأيسر مطبخ وغرفه الطعام، أما على الطرف الأيمن فهناك غرفتين منفصلتين عن بعضهما. إعتباراً من نهاية الصالون يبدأ درج خشبي أصفر يتصل بالطابق الأعلى. كان هناك ثلاث عمال موبيليا مشغولين بأعمال الديكور داخل البيت، بإرشادات من امرأة سمينة، فالبيت الجديد لم يكن يحتوي على موبيليا وهم الآن ينظمون الموبيليا التي جلبت على عجل. أعمال الصالون غير منتهية بعد ومن أجل انهاء الأعمال مبكرا فالمرأة ذات النظارات تعطي للعمال تعليمات مضطربة.

جلسنا جميعاً أمام التلفاز، بعد أن فتحها القائد بجهاز التحكم وبدأنا بمتابعة القنوات. الشيء الوحيد الذي سنفعله هو إنتظار رجال الاستخبارات الذين سيحضرون لأخذ القائد. كان القائد ينتظر السفر بعد ان أعد نفسه. تجول بين القنوات بجهاز التحكم، جميعها قنوات روسية، تابع بعض البرامج الرياضية، لكنه ما لبث ان أغلق التلفاز.

"خذوا التلفاز وصحن الهوائي إلى القرية ولتكن ذكرى مني إلى الرفاق هناك، ولتبقى الصور التي التقطناها في ألبوم القرية، ستكون ارشيفاً، تستطيعون نشر عدة صور جميلة..".

دُق جرس الباب أثناء حديث القائد، والقادم هو أحد الرجال الذين صنعوا جواز السفر. قال فور دخوله: "اعطونا جواز السفر الروسي الذي أعطيناه لكم وجواز السفر الذي أتيتم به من سوريا. والمناسب منها سنعدها بتأشيرة الخروج ".

قال القائد دون تردد:"حسناً، اجلبوا جواز السفر". نهضت روزرين لجلب الجوازات، ثم سلمتها للرجل الذي غادر المنزل فور أخذه للجوازات.

جميعاً رجعنا إلى الصالون. جلس القائد في نفس المكان، ولم ينتظر وقال:"ليس من الواضح ما سيحصل..! سنذهب بعد قليل؛ الموت موجود في نهاية هذا الطريق..!. الطوفان مستمر... يجب ان تكونوا مستعدين لكل شيء ولكل الظروف..". ثم توقف عن الكلام.

ساد الغموض على وجه القائد؛ عيونه كانت مستغرقة، تابع حديثة: "المخاطر التي ستواجهنا في هذا الطوفان لا حصر لها: الأفاعي، العقارب...آلاف الاخطار والمتاهات، ألف متاهة ومتاهة. والامر الصعب في الطوفان هو السفر، لو كان احد غيري لما تحمل قلبه يوماً واحداً..... رغم جميع الأخطار المميتة للطوفان فان بقائي مرتبط بالقيم التاريخية للإنسانية، والتي تدفعني مجبرا نحو مسيرتي". نهض واقفاً وأخذ يتمشى، ينظر في عيوننا فرداً فرداً نظرة تنقش في الروح..!.

ارتعشنا عندما دق جرس الباب. فالقادمين هم موظفي الاستخبارات. قالوا: "أحضرنا السيارات. انها في انتظاركم". تحركنا جميعاً. حمل تايهان المعطف الطويل واللفاحة، أمسكها ليلبسها القائد. لبس المعطف أمام المرآة ووضع اللفاحة حول رقبته، ثم أخرج من جيبه نظارة ذات

أشترينا ألبسة جديدة للقائد من أجل السفر؛ حذاء أسود من جلد براقن، معطف من لون آخر، بنطال وقميص بلون الخردل الفاتح، معطف حريري أسود طويل حتى كعب القدم، لفاحة حريرية تنسجم مع اللون الازرق والخردلي.

كان القائد يلبس البدلة الرياضية عندما نزل، قال ضاحكاً:"اليوم سنذهب". أخرجنا ملابسه، فسألنا:"هل سارتدي هذه الالبسة..؟"

قلنا:"نعم قائدي".

أخرج القميص من علبته ولبسه، إلا أن مكان الطي كان يظهر عليه بشكل واضح لانه خرج من الجلاتين لتوه. بعدما رأينا ذلك قلنا: "قائدي، انزعه لنكويه ثم ألبسه".

نظر مبتسماً: "لا داعي لذلك".

"أماكن الطي ظاهرة ولا يستحسن ظهورها بهذا الشكل تحت الجاكيت".

ـ "لا داعي لذلك، فكما قلت ليست هناك مشكلة".

أصرينا في طلبنا:"انزعه قائدي، لنكويه"

حسناً... لسنا مرغمين على ان يكون كل شيء جيداً"، ثم نزع القميص عنه.

عندما كنا نكوي القميص، لبس القائد بنطاله وجوارب منسجمة اللون، ثم لبس القميص بعد أن أنتهينا من كيه. وضع تايهان ربطة عنق القائد، ومن ثم سوى من ياقته. بعد ان عدل ربطة العنق (مبتسماً): "أجل قائدي كل شيء بات جاهزاً".

نظرت إلى الحذاء ثم اخرجته وقلت:"قائدي، أعتلي هذه الاحذية أيضاً". وهكذا انتعل الحذاء.

جلب تايهان سترته وقال:"قائدي، البس السترة أيضاً".مد القائد ساعديه مبتسماً ولبس السترة، ثم وقف أمام المرآة وسأل:"كيف أصبحت..؟"

جاوبنا:"قائدي، ملائم جداً".

تابعناه إلى الصالون، كنا نلتقط صور الوداع الأخير للقائد؛ الفردية منها والزوجية والجماعية. هذه الصور كان يحددها القائد، ان كانت جماعية أو فردية أو مع رفيق. فاحيأنا يقول:"تعال انت" وأحيأنا اخرى يقول:"تعالوا جميعاً"، ونحن نلتقط الصور.

تفرجنا على البيت، القائد أمامنا ونحن خلفه، ثم صعدنا إلى الطابق الثاني عبر الدرج الخشبي، كان يحتوي أيضاً على صالون وعلى طرفيه الأيمن والأيسر غرف فردية. في الواجهة كان المكان الذي سيبقى فيه القائد، وهو بيت مصمم على شكل شقة مؤلفة من غرفة نوم ومكتب وحمام، أبوابها تنفتح على بعضها من الداخل. بعد دخولنا غرفة النوم عبر باب داخلي، كان هناك الحمام على اليمين وغرفة العمل على اليسار. بعد تفحصنا لهذه الغرف صعدنا إلى الطابق الثالث، هذا الطابق هو العلوي، له صالون و حمام فقط ونافذة ذات ستار فضفاض تطل على غابة الصنوبر والسقف المائل بشكل مثلث يلائم شكل الصالون وهو الطابق الأجمل. بعد جولتنا في هذا الطابق قال القائد مبتسماً:"سنحول هذا المكان إلى أكاديمية" ونزل إلى غرفته في الطابق الثاني من أجل الاستراحة وبدورنا نزلنا إلى الصالون في الطابق الأسفل.

أنا وروزرين وفاطمة وتايهان وطاهر مع أربعة من عناصر الحماية كنا في الصالون. هؤلاء الرجال يستطيعون التجول في الغرف والطوابق كيفما يشاؤون، ولكن عندما يفتشون الغرف والطوابق بحجة الحماية، كنا نذهب ورائهم للمراقبة. من غير الممكن أن نثق بهؤلاء الرجال الذين لا نعرفهم ولا نعرف ماهيتهم، يتجولون أكثر الأوقات وفي أيديهم جهاز، لا أعرف ان كانوا مسلحين أم لا، إذ لا يوجد أي سبب لحيازة السلاح. نشعر بالفزع عندما نضع احتمال بأن هؤلاء الرجال سيفعلون شيئا ما بالقائد في يوم من الأيام. كانوا على شكل مجموعتي حراسة متناوبة سيتواجدون اربع و عشرين ساعة داخل البيت.

قال تايهان أثناء جلوسنا في صالون الطعام:" هذا البيت أيضاً لجيرينوفسكي، ولأنه لم يستعمل قبل الآن لذا لا توجد فيه مفروشات. جلبت هذه المفروشات على عجل، لقد قام ابن جيرينوفسكي باختيار الموبيليا، كما إننا سنعطي ١٥ ألف دولار أجرة شهرية مقابل بقاء القائد هنا" انتابتني الحيرة عندما سمعت بأنه يتقاضى مبلغ ١٥ ألف دولار"... صديق يأخذ المال من ضيوفه.

نظمنا أعمال البيت الداخلية، سنبقى نحن في الجانب الأيسر لشقة القائد، روزرين وفاطمة ستظلان في الغرفة المقابلة وعلى مدار الساعة سنقوم

بالحراسة أمام الشقة، وظيفة طاهر بطبيعة الحال هي قيادة سيارة الجيب الـ" تويوتا" التي خصصها لنا جيرنيوفسكي وسيهتم بتلبية حاجات البيت أيضاً، وعند الضرورة سيخرج مع شخص ويرجع في أقصر مدة ممكنة. روزرين وفاطمة ستهتمان سوية بمطبخ القائد وبالاخص روزرين التي ستلبي أصغر احتياجات القائد، لأنها تعلمت قليلاً نظام حياته. وسياخذون الطعام إلى غرفة القائد في الساعات المعينة بالتناوب،أما أنا وتايهان سنهتم بحماية القائد.

في الواقع سنقوم نحن الخمسة بكافة الأعمال أيضاً، فالحياة ستفرض ذلك. وبينما كنا نتباحث تلك الأمور في صالون الطعام، كانت المرأة السمينة ذات النظارات والعمال يغادرون الصالون بعد إنهاء أعمالهم. أما رجال الحماية فكانوا يبقون في غرفة صغيرة واقعة على مدخل الصالون على الجانب الأيمن للباب الخارجي، يبقون فيها دائماً عندما لا يوجد ما يقومون به. في أوقات غير منتظمة يأتون للمطبخ لشرب القهوة ويتجولون أحياناً في الطوابق بهدف المراقبة. في منتصف الليل يتم تبديل الحماية، مجموعة الحراسة تبقى في إحدى الغرف الثلاث الموجودة على يمين الصالون وتتغير المجموعات عندما يتبادلون المناوبة. ولأننا نبقى في الطابق الثاني لذا لن نتقابل كثيراً مع المناوبين المتغيرين في منتصف الليل، ولكننا سنتقابل عندما نضطر للنزول إلى الطابق الأول لأخذ ما نحتاجه من المطبخ وعندما نتقابل نهز الرأس فقط تعبيراً عن التحية.

كنت متعباً كثيراً فالساعة تجاوزت منتصف الليل، إنها المرة الأولى التي تجتاحني عواصف العواطف هذه، فكثرة العواطف ستكبر القلب. عندما تثاقلت جفوني من شدة التعب صعدت إلى الغرفة الواقعة بجانب شقة القائد، كي أنام. تحتوي هذه الغرفة على ثلاث أسرّة فردية، وثلاث خزانات ألبسة من الحجم الصغير، أرضيتها مفروشة بسجادات وقطع خشبية مزخرفة، ولونها أيضاً مثل لون الغرف والطوابق الأخرى للمسكن؛ أبيض مائل للرمادي... موبيليا الغرفة جديدة أيضاً كالموبيليا الأخرى، ويظهر بأنه لم يتمدد أحد قبل الآن على هذه الأسرة.

في الطريق المقابل للأسرّة نافذة كبيرة تطل على الفيلات المجاورة، ننام هنا بالمناوبة دون وقت معين.

" لا، لا يوجد شيء من هذا القبيل، لقد فهمتم خطأ، اذهب إلى إيطاليا وليس إلى قبرص".

الرجل الغريب: كيف ستذهبون إلى إيطاليا؟، وبوساطة مَنْ ؟ لن نعطي الإذن قبل أن نعرف. أعطوا رقم هاتف الأشخاص الذين تعاملتم معهم في إيطاليا، يجب أن نتصل من هنا، هذا مهم من ناحية ضمان حياتكم...".

قال القائد بارتياح وثقة بالنفس: "حسناً، اعطوا رقم هاتف الأصدقاء ليتصلوا".

أعطيت أرقام الهاتف للرجل الغريب بعد هذه الكلمات. انتقل الرجل الغريب إلى غرفة المدخل بعد أخذه لأرقام التلفون... كنا ننتظر واقفين في الصالون. اتصل الرجل الغريب باكثر من مكان وعاد إلى الصالون بعد انهاء عمله. قال "حسناً، تستطيعون الذهاب إلى إيطاليا، ولكن القادم من إيطاليا لن يدخل الاراضي الروسية مهما كانت صفته، ستتقابلون مع اصدقائكم في المطار، ومن هناك ستذهبون إلى إيطاليا".

وكأن القائد لم يهتم بكلامه. أجاب:"حسناً".

قال الرجل العجيب: نأتي غداً لأخذك، ستذهبون برفقة الحماية حتى المطار". ثم خرج، سيذهب القائد غداً صباحاً، وفي المساء دعا تايهان إليه، أخبره سابقاً بذهابه للمؤتمر. هذه المرة توقف على كيفية التصرف عند الذهاب للمؤتمر، وقال:

"عملية اعادة البناء من جديد يجب تحقيقها في أقرب وقت داخل الحزب.... على هذا الاساس ومع المؤتمر يجب تخطي المشاكل الداخلية للتنظيم... عليهم ألا يتناولوا قضية خروج القائد من الوطن بسطحية، وأن يفهموها بشكل صحيح، لن اتدخل كالسابق في جميع مشاكل الحرب والتنظيم. يجب تشكيل مركز جديد للحزب من الشباب. إفراغ المؤتمر من معناه مرتبط بهم ويتحملون مسؤوليته".

****

استيقظنا في الصباح الباكر ننتظر نزول القائد، أما حقائبه وأشياءه فكنا قد جهزناها في الليلة الماضية. روزرين أيضاً أعدت نفسها للرحيل.

القائد، قال ماهر "أحمد يدير الفعاليات الدبلوماسية في روما منذ سنوات. إن احمد هو مقاتلي، أنا الذي ألحقته بصفوف الحزب قبل سنوات". نزلا بعد بقائهم قليلاً.

ماهر :"سيذهب مجيد أيضاً مع القائد إلى روما". التفت إلى روزرين :"قومي بالتحضيرات، ستذهبين أنت أيضاً مع القائد، وأكبر الاحتمالات انكم ستغادرون غدا في الصباح الباكر".

كنا في الغرفة الأخرى عندما كان ماهر ومجيد يجلسان في الصالون حول الطاولة.

تايهان:" لقد تحسنت الامور والأوضاع بعدما تم تأمين مكان يبقى القائد فيه بأمان..".

على وجهه بهجة وفرح مشوبين بحزن؛ لان الفراق عن القائد... كان يحزنه. ولكن المهم رغم كل شيء هو خروج القائد من هنا بسلام...

بعدما خيم الليل جاء الرجل الغريب برفقة السيارات السوداء، دخل الغرفة التي يتواجد فيها ماهر ومجيد، قال"حضرنا لنبعث رئيسكم بطائرة خاصة من فوق الاراضي التركية إلى قبرص القسم الرومي، هذا ما قاله لنا قائدكم بنفسه في المقابلات السابقة؛ بأنه يستطيع الذهاب إلى قبرص اليونانية كبديل". في هذه اللحظة نزل القائد من الدرج بخطوات سريعة، استقبلت القائد عند نهاية الدرج، بوجه فرح ومتفائل.

"ماذا يحصل..؟ من جاء".

ـ " قائدي انه مسؤول الاستخبارات الذي يأتي دائماً، سيبعثونك عبر تركيا إلى قبرص اليونانية...". وقبل أن أُنهي حديثي قال:"أي قبرص..؟ من يوجد في الداخل..؟"

قلتُ: "ماهر ومجيد".

ـ "انسحب من طريقي، سأدخل الغرفة" قالها ودخل.

بدخول القائد إلى الصالون نهض الجميع واقفين، توجه نحو الرجل الغريب، قال بابتسامة استهزائية: "بابا، من قال لك بأنني ذاهب إلى قبرص، لن أذهب إلى قبرص أو أي مكان آخر، بل سأذهب إلى روما. اصدقاؤنا هناك قبلوا مجيئنا".

كان مجيد يترجم الحديث إلى الروسية، وقال مؤكداً:

أيقظنا تايهان في السادسة صباحاً، ثم وقف وراء النافذة ساعياً ليفهم أحوال الطقس، لم يكن هناك أي تغيير ملحوظ. فالجو بارد كالعادة وبينما كنا نتناول فطورنا، أصغينا جميعاً السمع بدقة للأصوات الصادرة من غرفة القائد. علّنا نلتقط أي صوت صادر. نريد أن نفهم من الأصوات ماذا يفعل القائد، فالآن يأتي صوت المياه باستمرار، نفهم بأن القائد يتحمم، ثم انقطع صوت المياه بعد مدة. لم يمض الكثير من الوقت حتى نزل طاهر بسرعة وارتباك تاركاً مكان المناوبة في أعلى الدرج، ليخبرنا بمجيء القائد، فإلى جانب مهمة المناوبة على الكرسي المتوأجد في مدخل الطابق الثاني نكون قريبين لنلبي حاجات القائد لغرض ما، ولهذا السبب يتواجد أحدنا دائماً على مدار الـ٢٤ ساعة في ذلك المكان.

أثر سماع الخبر، أسرعنا الخطى لانتظار القائد عند نهاية الدرج الذي سينزل منه. نزل القائد، ومرة أخرى كان يعتلي حذاء الـ"مافيستو" لابساً بيجامة(adidas) زرقاء اللون ومعطفا خاكي اللون، قلت في نفسي ربما كان قد جهز نفسه للخروج. لم يمر على ذلك وقت حتى اقترب من الباب الخارجي، فأخذت وتايهان معاطفنا وبدأنا بمرافقة القائد، أفراد الحماية جميعهم كانوا يقفون عند الباب وبدأوا التحرك فور خروج القائد. قال القائد:"لنتمشى قليلاً" وبدأ السير دون انتظار ردود أفعالهم، تبعنا اثنان من عناصر الحماية وهما يلبسان معاطف طويلة وربطة عنق ومعهم جهاز لاسلكي. خرجنا عبر بوابة الحديقة وسلكنا الطريق الترابي المتجه نحو الغابة. القائد يتوسطنا؛ تايهان على يمينه وأنا على يساره، أحد أفراد الحماية أسرع خطاه وتقدمنا مسافة مائة متر، والآخر بقي يراقبنا بنفس المسافة من الخلف، وكليهما يتحدثان مع بعضهما بالجهاز الذي يحملانه، أو إنهم يتحدثون مع الحماية الباقية في البيت أو مع بعض اللذين لا نراهم.

الجو كان شديد البرودة كالسكين والهواء يلعب بأطراف معطفي، ومن تأثير الريح تبعثر شعر عنصر الحماية الاشقر الذي يسير أمامنا. سحر المسير بجانب القائد يخفف من حدة البرودة، فلا أحد غيرنا في الطريق، على جانبنا الأيسر وعلى مسافة بعيدة هناك شارع أسفلتي يمر عليه السيارات، أما على الجانب الأيمن فهناك غابات الصنوبر الطويلة والكثيفة. تركنا البيوت ورائنا وسرنا على مسافة قريبة من الغابة، حيث

يختفي الطريق الذي نسير عليه عند انعطافه داخل الغابة، نسير في جغرافية مستقيمة جداً، لا يتوفر فيها حتى مجرد نتوء صغير.
اكتسى لون الخريف المروج الصفراء المنتشرة على مسافة النظر وعلى أوراقها الابرية. هذه الغابات هي إحدى الجوانب القليلة المحبذة لدي في هذه المنطقة، ما يميزها هو إنه لم يمسها الفأس ويمكن رؤية هذه الميزة في جميع أماكن المنطقة، تراها تحيط بك من جميع الجوانب، فجغرافيتها مستوية مثل الورقة إلى نهاية الأفق.
تفحص القائد جميع الاتجاهات بعيون مدققة، عينيه تغوص بعض المرات في خضرة الغابات، وتتعلق أحياناً بالسماء المغيمة الزرقاء، وأحياناً أخرى هي التي تنعكس على حدقة عينيه المحاكية ومحياه وعيونه، وباعطاء عيناه الغائرتين في البعيد وضعية غامضة، يضحك وتتلمع عيناه ومن جديد، تتصل حاجباه ويصبح عيناه حادتين. في كل مرة نظراته المؤثرة تشمل حتى أعماق أعماق الروح. أبطأ من خطواته قليلاً وقال:" أفكر هل يوجد شيء يسمى معجزة..؟ عندما أنظر لنفسي، أرى خروجي يشبه الآنبياء... بحث مثل كلكامش... ومهما يكن فأنا أفكر بشكل مادي، إلا انني أفكر، عجباً هل لخروجي جوانب معجزوية".
كنا نتابع المشي، أقتربت منه أكثر لكي أسمع بشكل أفضل، حتى صرت قريباً بمسافة نصف خطوة، بعد سكوت دام قليلاً التفت إلى تايهان وسأله قائلاً:" ماذا يشبه خروجي..؟".
قال تايهان بصوت متوتر ومضطرب:" قائدي؛ إنه يشبه الحركة الثانية للهجرة. فقبل خروج محمد للمدينة ذهب للطائف وفيما بعد قام بهجرته الثانية الكبيرة للمدينة... التاريخ يكرر نفسه بأشكال متفرقة...".
القائد:" لقد قمنا بهجرتنا عندما خرجنا للشرق الأوسط، التاريخ لا يتكرر، ولكن ينتعش مرة أخرى عندما يأتي مكانه وزمانه، اننا الآن نحيا التاريخ..".
وصل بنا الطريق إلى ثلاث مفترقات ولم يعرف عنصر الحماية أي الطرق سنختار، القائد وبإشارات من يده أوضح أنه سيذهب في الطريق الأيسر؛ سلكنا طريق الغابة. وبعد قليل التفت الي:
-" ماذا سيقول الروس عن مجيئنا، ماذا سيحصل..؟".

****
جاء ماهر في الصباح الباكر، ما إن دخل: "تعالوا نخرج، لنتمشى قليلاً".
تحركنا وعندما خرجنا قلت في نفسي:"ماهذا؟؟!!...في هذا البرد...لم يقم قبل الآن بشيء من هذا القبيل".
قال: "ناديتكم للخارج، لأنه ربما يتنصتون، كما تعلمون لم يعثر على مكان للقائد، ان لم يخرج خلال عدة أيام قد يخرجونه عنوة. لقد وضعت خطة وهي خطف القائد لحين العثور على مكان له، وفي هذا الوقت نكون قد هيئنا مكاناً لا يعرفه أحد. إذا تمكنا من إنقاذ القائد من الحراسة الداخلية والخارجية لهذا البيت بشكل سري، وأوصلناه لذلك البيت المقصود فانه يستطيع البقاء هناك بسرية حتى نؤمن له مكاناً". بعدما قال ذلك التفت إلى تايهان: "القائد يخرج للمشي في هذه الحديقة كل يوم، عند المساء ستلبس البيجامة التي يلبسها القائد كل يوم، وتضع قبعة القائد على رأسك وتسحبها جيداً حتى أُذنيك، وهذا يكون أفضلاً لعدم معرفتك. أساسا الوزن والطول، الشكل بشكل عام شبيه بالقائد أيضاً. تمشي بخطوات بطيئة ومطابقة للقائد عند المساء. ونحن سنلبس القائد سترتك، نخرجه بجيب التويتا، سنخرجه بهذه الطريقة من المنزل وبسهولة بحيث انهم لن يتوقعوا ذلك. والآن سأصعد لأُعلم القائد بالخطة. ان قبلها سنبدأ التنفيذ حالاً". ثم صعد إلى القائد. نزل بعد فترة قصيرة وبدون أن نسأل قال: "رفض القائد مباشرة، لم يقبلها". ثم هم بالخروج.
مع حلول الليل جاء مع مجيد ثانية، وجوههم ضاحكة، حتى إنهم كانوا مسرورين.
ـ "تم العثور على مكان يذهب إليه القائد، قبل الآن بحث الرفاق الموجودين في أوروبا، في جميع البلاد ومن جملتها إيطاليا على إمكانية البقاء، واستنفروا جميع العلاقات الدبلوماسية الصديقة الموجودة، لكن لم يحصلوا على نتيجة، وفي النهاية اتصل الرفاق من إيطاليا وقال بأنه تم قبول القائد بشكل رسمي في وزارة الخارجية وبواسطة أحمد يمان. سيأتي من روما عدد من أعضاء البرلمان الإيطالي لأخذ القائد".
تغيرت حالتنا النفسية بعد سماع هذه الكلمات، وأخيراً تغيرت العيون المعلقة والوجوه القلقة، لتطفوا عليها الفرحة والبهجة. وقبل صعودهما إلى

روجهات، الأصدقاء... اتصلت ..تمام". وفي اتصال آخر: " بعض الأشخاص يزرعون العراقيل، لا يوجد طيار خاص". بعد اتصال آخر قالت: "وجدوا طياراً، لكنهم يبحثون عن طائرة خاصة". وبعد الاتصال الهاتفي الأخير قالت: "لا طائرة... ولاطيار... ولاصديق ... لن نأتِ. هكذا قالوا". وضَعَت بذلك نهاية لمخطط الذهاب إلى اليونان ولتفاؤلها. لا يوجد نبأ من أوروبا. محاولات ماهر ولقاءاته هي الأخرى لم تنم عن نتيجة، والروس يتابعون نفس الأقوال؛ "إما أن تخرجوا، أو سنخرجكم".حسناً إلى أين سيذهب القائد..؟

*****

لم يخرج القائد إلى الحديقة منذ أيام، لكنه خرج هذا الصباح رغم البرد القارس، تمشى مع تايهان جنباً إلى جنب بخطوات بطيئة، التفت إلى تايهان:

ـ " ليس لنا مكان نذهب إليه. العالم لا يقبلنا، برأيك إلى أين نستطيع الذهاب..؟

لم يقل تايهان أي شيء.

تابع القائد:"هل يمكن الذهاب إلى أوروبا... جنوب أفريقيا، اليونان"..؟!

لم يجاوب تايهان ثانية. وماذا سيقول حتى إن رغب في الاجابة.

ـ :"ماذا تقول عن القرية، ألا يستطيع الإنسان البقاء في القرية سراً..؟"

تايهان:"قائدي، القرية مكان تحت المراقبة المستمرة".

برد القائد وسار نحو الباب، أثناء الدخول قال: "مهما يكن، فالعثور على مكان أستطيع التنفس فيه يكفي لنجاحي". قالها وصعد لغرفته...

توالت الساعات والأيام وليس لنا ما نقوم به، ننتظر...نقول بأمل: "ربما ستظهر فرصة، مكان ما، ربما سيدعون القائد إلى مكان ما، مكان يستطيع التنفس فيه، إيجاد شبر من الأرض".

الإنتظار،

مع الامل

والقلق

والخوف

ـ " قائدي، ان كانت روسيا تريد ممارسة السياسة في منطقة ذات موقع سياسي هام مثل الشرق الأوسط، فانها مجبرة على أخذ الكرد بعين الاعتبار، وسيقومون بتقييم مجيئكم ...."

ـ" حسناً هل هناك قوى سياسة مبدئية تليق بتاريخهم..؟

ـ ....!

ـ كل يوم نعيشه هنا سيخلق تطورات تعادل الـ ٢٠ سنة التي قضيناها في الشرق الأوسط، هل تريدون أن نحيي البلشفية هنا... طبعاً انتم بعيدين كل البعد عن الابداع والتطورات...! انتم تنتظرون الأشياء الجاهزة..".

أنهى القائد كلامه ضاحكاً.

****

قبل فترة قصيرة جداً، وبتثبيت تركيا لمكان القائد في سوريا، كادت أن تعلن الحرب عليها، فاضطر القائد للخروج من سوريا وأدلى حينها مسعود يلماظ تصريح إعلامي مفاده

(أوج الآن في روسيا). " أوج الآن" أصبح الموضوع الرئيسي للتلفزة والصحافة، في تلك الأيام نحن أيضاً كنا نتابع الأخبار، كانت مبالغة فيها، ولفهم الحقائق ورؤية خلفياتها لا بد من القوة اللازمة، ونحن كم نملك هذه القوة..؟.

سيكرر لنا القائد أكثر من مرة هذه الكلمات:" أنتم بعيدون عن فهم جوهر الأمور".

عندما يتكلم القائد في بعض الأحيان ورغم المعاني الكثيرة، إلا إنه يرتسم تعبيراً في كل مرة على عينيه وعلى ملامح وجهه. وهذا التعبير" الألم" ينعكس على حاجبيه المقوستين وعلى خطوط جبهته.

حسناً عندما يتكلم القائد حول أوضاعنا لماذا يحتاج إلى هذا التألم..؟

بدأنا العودة من الطريق الذي سلكناه بين غابات الصنوبر. الهواء البارد يأزم مرض التهاب الجيوب الذي يعاني منه القائد من مدة طويلة. والواضح إن مناخ هذه المنطقة لم يكن جيداً بعد مناخ الشرق الأوسط.

هؤلاء الروس الضخام الجثة لا يزالون يراقبوننا أيضاً على نفس الشاكلة، وعند اقترابنا من البيت انتهت مسيرتنا الصباحية الأولى التي دامت ساعة في هذا المكان الذي لا نعرف أين يقع.
أحد عناصر الحماية الباقين في المنزل فتح لنا باب الحديقة، خلع القائد حذاءه الرياضي وانتعل حذاء آخر وصعد إلى غرفته ومن ثم أخذت روزرين الفطور إلى غرفته. بعد المشي الصباحي، لم يخرج القائد من غرفته في ذلك اليوم أبداً، لم يكن في البيت تلفزيون أيضاً، لدى القائد كتب جلبها معه؛ كتاب(النبي محمد) لـ م. رودينسون، من منشورات حرييت (نسخة مختصرة لملحمة كلكامش)، "التاريخ المختصر للمائة عام" لـ ستيفن هأوكينغ، وكتاب(تاريخ الفكر في بلاد ما بين النهرين). القائد يقرأ الآن أما كتاب واحد أو عدة كتب، أو إنه يقرأ الصحف التي جلبناها معنا من البيت الأول، أو يفكر وهو يتمشى داخل الغرفة وعندما يتعب يجلس على المقعد الموجود في غرفة العمل. أحياناً يفكر متمدداً على سريره، من الممكن إنه أحس بالضجر وخرج للبلكون يسترقي التنصت في خشوع للغابة، ولكنه يفكر..!. فكل تصرف يقوم به القائد يوجد فيه فكرة أو غاية.
روزرين تأخذ الطعام في أوقاته وعندما نسألها عند رجوعها "ماذا يفعل..؟". نتلقى اجابتها مثل كل مرة "يفكر".

****

ممنوع التدخين في البيت وهذه قاعدة، فالقائد حساس جداً في هذا الموضوع، وإذا شم رائحة صغيرة ينزل مباشرة إلى الطابق الأول وهذا لا يشكل لي ولفاطمة وروزرين أية مشكلة لأننا لا ندخن، ولكنها مشكلة كبيرة بالنسبة لتايهان وطاهر، فهما يترددان كثيراً على غرفة صغيرة موجودة بجانب الحمام بالقرب من الباب الخارجي ذات نافذة ليدخنوا فيها، لأنه من غير المعقول أن يخرجا في هذا الطقس البارد من أجل التدخين، فالموضوع هو موضوع أيام وعلب سجاير وليست سيجارة أو أثنتين... إذ أن تايهان كان يدخن في اليوم اثنين إلى ثلاثة علب من السجائر لكنه لم يكن يسحبها إلى رئتيه.

نزل القائد في الظهيرة. كان يتمشى في الممر الضيق، نظر للخارج عبر النافذة: "هل الطقس بارد في الخارج، أريد المشي قليلا.؟"
ـ جاوبته:"قائدي، الجو بارد جداً، لا شك انكم ستبردون..؟"
ـ حسناً إن كان كذلك لن نخرج". ثم صعد إلى غرفته.
انتظار المجهول يولد العذاب لدى الإنسان، هكذا مرّ يوم آخر.

****

حضر الرجل الغريب ثانية في الصباح الباكر، يتصرف لاظهار الجدية والرسمية، عندما أخبرنا القائد، نزل الدرج بسرعة لمقابلته. قال الرجل الغريب:
ـ لن أبقى طويلاً ليس لدي الوقت، أتيت لاعرف متى ستذهبون".
رد القائد: "سأذهب بعد العثور على مكان نذهب إليه".
الرجل الغريب: "إما ان تخرجوا خلال عدة أيام، أو سنخرجكم". قالها ثم خرج ذاهباً. كان يحافظ على برودة أعصابه، هادئ، لكنه في عالم بعيد جداً، سار عدة خطوات ثم عاد:
ـ "هدف عملية تمشيط الطوفان التي بدأت في الأول من تشرين الأول هو القضاء على القائد جسدياً، إذا لم يتمكنوا من ذلك سيقحموننا في وضع لا نستطيع التنفس فيه. ليس لدينا شبر من الأرض نستطيع الذهاب إليه، ولا مكان نستطيع التنفس فيه.. آخر ما تبقى هو جهود عدة أصدقاء. وليس واضحاً ما الذي سيفعله هؤلاء أيضاً ".
بقي صامتاً للحظات ومشى عدة خطوات وفجأةً.. تغييرت ملامح وجهه، فضحك ملئ فمه:"ستمر هذه الأيام أيضاً". ثم صعد لغرفته. كانت كلماته تترد في رأسي "لا يوجد شبر من الأرض نستطيع الذهاب إليه ولامكان نستطيع التنفس فيه". حتى في هذه الأجواء كان متفائلاً ويستطيع الضحك بملئ فمه... "ستمر هذه الأيام أيضاً".

****

واليوم أيضاً قالت روزرين التي تتحدث بالهاتف بين الحين والآخر: "لم أستطع الاتصال مع الأصدقاء. وبعد قيامها باتصال آخر كانت تقول: "

"عصمت سزغين" بزيارة إلى روسيا البيضاء، هذا التصرف أفرغ جميع مساعينا من نتائجها".
هجار:"قائدي، ذهاب عصمت سزغين إلى روسيا البيضاء دون مبرر ليست علامة خير، وخاصة في الوقت الذي كنا سنذهب فيه".يتسمع بلهفة لكل ما يقال، صامت، يشع من عينيه الغضب والسخط. بعدما تمعن في ماهر قليلاً، إلتفت إلى روزرين قائلاً:"روزرين ماذا فعلت..؟"
روزرين: "قائدي، أتكلم دائماً بالهاتف، سيتم حجز طائرة خاصة، وسيأتي الأصدقاء ويأخذونكم، سأتصل بالهاتف بعد قليل لمعرفة آخر التطورات".
قال لماهر:"ماذا يفعل ذلك الرجل....مجيد..؟"
ماهر:"قائدي، لا أعرف على وجه الدقة آخر الأوضاع. كان من المفروض ان يأتي إلى هنا".
-"اتصل بالهاتف وتأكد ماذا فعل..؟"
التفت ثانية إلى روزرين: "اذهبي وإتصلي بالهاتف".
إتصل ماهر في الصالون بهاتف الجيب، وروزرين تتصل باليونان في الغرفة المجاورة للمدخل، ونحن نقف في الممر مع القائد. أصوات المكالمات كانت تصلنا؛ يتكلمون بصوت عال، يصرخون أحيانا. من جهة يتصل ماهر بمجيد، يصرخ فيه ويشتمه. ومن جهة أخرى روزرين ترفع صوتها غاضبة منفعلة. هل كانت كل هذه الشتائم والصراخ في التلفون رسالة للقائد على أننا نفعل ما بوسعنا..؟ وعندما جاءت روزرين بعد إنهاء المكالمة:
"قائدي، تم تأمين الطائرة... لكنهم لا يستطيعون تأمين طيار خاص لجلب الطائرة إلى هنا. يقولون بأنه من الممكن تأمينه بعد فترة قصيرة".
ضحك القائد مستهزئاً. أنهى ماهر مكالمته أيضاً، لم يتكلم القائد معه. نظر إليه بطرف عينه وذهب لغرفته. "لم يعثر على مكان نذهب إليه".
في الصباح الباكر اتصلت ثانية؛ مرة تتكلم باليونانية، ومرة تتكلم مع غيره بالتركية. سألتها بعد المكالمة:"هل هناك تطور ما..؟"
-"لا أعرف، أتكلم مع روجهات ومع الأصدقاء؛ انهم لا يقولون شيئاً معلوماً؛ فهذه المرة لا يعثرون على طائرة خاصة".

وعد الرفيق تايهان القائد - أثناء المسير الصباحي لهذا اليوم - أن يترك التدخين. لقد سأل القائد كل واحد منا أثناء اللقاء التعارفي" هل تدخن..؟".
في موضوع ترك تايهان للتدخين ألتقطت فرصة جيدة، ومهما يكن فهو وعد أعطاه للقائد وأنا سأكون مراقبا أميناً لذلك.
أشرت لتايهان وأنا أضحك، بانني سأكون مراقباً لهذا الوضع.
-" لا تنسى، أعطيت وعداً للقائد بإنك ستمتنع عن التدخين".
-" نعم سأمتنع عن التدخين ولكن لا تضايقني كثيراً. قد لا أتركه الآن إلا إنني سأتركه".
تايهان يسعل كثيراً نتيجة التدخين، والسعال أصبح طبيعياً لديه كالتنفس، يعاني من عسر النفس أثناء المسير أو عند القائد، عندما نتمشى يعطيني إشارة بطرف عينيه ويبقى في الخلف، يسعل حتى يرتاح. يحب الحساسية كثيراً عند القائد ويطلب منا عدم القيام بأية حركة، تجلب الآنتباه أو تقطع افكاره، كان ينبهنا بنظراته أو بحركات يده ولهذا السبب، فالسعال يضايق تايهان.
في إحدى المرات نزل القائد الينا بشكل لم نتوقعه، طلب المحادثة مع تايهان. لكن تايهان لم يتكلم بسبب السعال، غصّت حلقه، وأعضاء جسمه أصبحت غير طبيعية، تعرق بشكل غير طبيعي، قال القائد:" هل أنت مريض...؟ اجلس".
ولكنه لم يجلس
-" اجلس ستقع لتوك ويغمى عليك...".
لم يجلس أيضاً، هكذا علقت الغصة في حلقه لدقائق، واقفاً ينتظر بوضعية غسل العرق كل جسمه.
قال القائد بدون إطالة:" ان لم تجلس، فلا تجلس.."
لقد وصل السعال بتايهان إلى هذه الدرجة. إن قلل السجاير أو تركها سيستطيع التحدث مع القائد بشكل أفضل.
طاهر من الجنوب الصغير ذو هيئة متمرسة. ورغم إنهائه كلية الصيدلة في روسيا إلا إن ذهنية التجارة طغت على روحه، والذي يعرفه لا يصدق بأنه أنهى الصيدلة.

تزوج من إمراة روسية وله طفل صغير، وبشكل عام يعرف بالسائق، لغته الروسية ليست رديئة، بسبب بقاءه المطول هنا ولهذا السبب عندما تظهر الحاجة فهو الذي يتكلم مع عناصر الحماية.
شخصان مختلفان، يدخنون السجاير بسرية في تلك الغرفة وعندما يفرغون من التدخين ولكي لا يتركون أي دليل يقومون بتهوية المكان.
أجلس على الكرسي الذي يواجه غرفة القائد، إلى أن أشعر بالنعاس، فأبدأ بالمسير جيئة وذهاباً على السجادة المرنة ومن النافذة الكبيرة المطلة على الغابة، كنت أتفرج على الظلام من خلال الستار الفضفاض وأدير وجهي مرات إلى السماء، تائهاً في تخيلاتي، آخذاً الطريق في لهيب لمعان النجوم... المطاردات في الأحياء الشعبية لانقرة بعد العملية... أب ذو ضحكة ساخنة في بيت له حديقة تغطيها أشجارالمشمش، وعريشة ذات عناقيد ارجوانية... شفقة ام بريئة... أناس مسلحون في طرق جبلية.
عينان تنظران إلى حزم النجوم في ظلمة الليل، مليئة بالاشتياق والنور، إن ضحكتا ستصدران أجمل صوت في العالم... وكأنهما تناديان... كانهما تسردان... كأنهما تتوسلان... كانهما تغضبان... نظرة مليئة بالمحبة...
الظاهر أن النوم غلبني وتثاقلت جفوني، وعندما كانت تتلاشى خيالاتي، كنت أوقظ رفيقاً مناسباً للمناوبة.

****

استيقظت في الصباح الباكر على صوت لحن مميز. من يدمدم هذا اللحن..؟ .فركت عيناي بتحير، هذا الصوت... نعم إنه هو. إنه بجانب الغرفة التي نبقى فيها بثلاثة أو خمسة أمتار، الصوت يأتي بشكل صافي جداً وعندما أستمعت إلى اللحن، تذكرت كلمات أغنية أخرى.

التفكير بك جميل
التفكير بك يطفي عليّ الأمل
من كل أصوات العالم
تسحرني صوتك
مثل الاستماع إلى أجمل اغنية

رأيه، يقول: "لا يصح هكذا، سيغدو حياته في خطر". يبدو أن تقرب ميترافانوف أفضل مقارنة مع جيرنيوفسكي".

****

سيخرج القائد من روسيا، بمعنى آخر يخرجونه، ولكن لا يوجد أي مكان أو بلد يأويه، كما لم نتلق أي نبأ إيجابي من أوربا. تم الاتصال بمسؤولي التنظيم في أوربا لكن لا جواب بعد. روزرين مشغولة والتطورات غير واضحة. ماهر وهجار أيضاً لم يأتيا.
عند المساء انسحبت مع تايهان إلى غرفتنا. قال تايهان:"الجانب الأكثر صعوبة هو اننا لا نستطيع عمل شيء، كل شيء يتطور خارج إرادتنا، ومن المحتمل أننا لا نرى الكثير من المسننات التي تدور لكن كل شيء يحدث قريباً جداً منا. هل يجوز البقاء كمتفرجين، انه العجز..؟"
كنت أفهم مشاعر تايهان. هذه الأيام في الطوفان التي عشناها عند القائد فتح المجال لأعرفه وأفهمه جيداً، كلما عرفته أكثر أحسست بأنني أكثر قرباً منه. قلت له: "إن دورنا الوحيد في هذه اللعبة هو أن نكون جاهزين لمواجهة الألعاب التي تجري، والإنتظار قليلاً والتخلص من موقف المتفرج. لا يمكن ان نغير ما ستتطور إليه الاحداث، سنحيا بالتأكيد ما سيحصل".
لم يخرج القائد للحديقة هذا الصباح، لا أدري ان كان بسبب الطقس البارد أو لسبب آخر. نزل إلى الطابق الاسفل مع مجيء ماهر وهجار. كان يظهر ككل مرة هادئاً وطبيعياً، بارد الاعصاب وهادئاً بقدر مقابلتنا الأولى له. وهذه هي إحدى خصائصه التي تحيرني؛ يحافظ على هدوئه رغم الاحداث جميعاً، يراقب التطورات وحيداً في غرفته، وحتى عندما تظهر تطورات طارئة كان يحافظ على حالته الطبيعية. التفت إلى ماهر وهجار وبدون ان يتكلم كان ينظر إلى عيون ماهر ويسأله بنظراته... أجاب ماهر: "قائدي، كنا نقوم بالتحضيرات لنقلكم إلى روسيا البيضاء، وعلى هذا الاساس أردنا ارسال الرفيق هجار ليمهد ارضية سليمة للعلاقات، ولكن في اليوم الذي كان من المفروض ان يذهب فيه الرفيق هجار، قام

ميترافانوف وعدة أشخاص، إضافة إلى شخص آخر كان أحد الرجال الذين جلبونا من أوديسوفا "احد اعضاء البرلمان من نفس الحزب". جيرنيوفسكي وميترافانوف يظهران غير مرتاحين. كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها جيرنيوفسكي متوتراً وقلقاً حتى لم يبق فيه أثر للارتياح. وان ميترافانوف يحاول أن يظهر أكثر هدوءاً من جيرنيوفسكي إلا انه تبدو عليه علامات وجود أمور تضايقهم. صعدت فاطمة من أجل الترجمة، بعد فترة انتهت المقابلة ومن ثم نزلوا. الملامح المرتسمة على الوجوه تدل على انها كانت أشبه بالمقابلة الأخيرة التي جرت قبل الآن وبعد ذهاب جيرنيوفسكي وميترافانوف، التفت القائد إلينا:"هؤلاء الرجال مصرين على إخراجنا من هنا".

لقد هددوا جيرنيوفسكي كثيراً قائلين:"سنغلق حزبكم إن لم تُخرِجوا آبو من هنا". قالوا له:"انت الذي جلبته، وانت ستخرجه". والآن لا يوجد مكان نذهب إليه. فما الذي يخبئه الزمن لنا، سنعلم ذلك في القريب..." بعد ما قام بعدة جولات في الممر أضاف: "بقيتُ ٢٠ سنة في الشرق الأوسط، كان لحافظ الأسد موقف أصيل في مسألة بقائي... الآن لا نستطيع تأمين مكان في أي بلد". توقف مدة وقال بعدها: "هل تكتبون ما نعيشه...؟ أنتم الوحيدين الذين تعاصرون هذه الفترة، اكتبوا كي لا يضيع، فالكلام المقال وغير المدون يطير ويتبخر..".

ألتفت إلى روزرين:"إتصلي باليونان، ليستعجلوا قليلاً ً . وكما قلت قبل الآن، لتكن علاقاتك سليمة". ثم صعد للطابق الثاني.

هذه المرة ستتصل روزرين من البيت؛ حتى الآن كان التكلم من البيت محظوراً، لكن من الآن وصاعداً لن تخرج مرة أخرى بالسيارة من أجل المكالمة في الخارج... ستستخدم الهاتف رغم حقيقة التنصت إلى المكالمات، هذه المرة اتصلت روزرين باليونان، كانت تتحدث مع روجهات:"جهزوا الطائرة... استعجلوا.... الأصدقاء".

قالت فاطمة عندما سألناها عن النقاش الذي دار في غرفة القائد:"كان جيرنيوفسكي يقول للقائد اخرج من روسيا، سيغلقون حزبنا...اذهب لروسيا البيضاء ستبقى في فندق". أما ميترافانوف فكان على النقيض من

تناول القائد فطوره، ثم تحمم، وبعد قليل سينزل إلى هنا لنخرج للمشي الصباحي، برنامج هذا الصباح سيكون مكثفاً متواصلاً ونحن بدورنا تناولنا الفطور على عجل، وكنا في انتظار حضور القائد. أصبح صوت القائد، موضوع الحديث أثناء الفطور، الصوت ماعدا روزرين أدهش الرفاق الآخرين أيضاً وليس أنا وحدي، لان روزرين كانت قد استمعت من قبل إلى القائد وهو يغني، قال تايهان:" صوت حزين يؤثر على الإنسان، هذا النمط الصوتي يتواجد فقط عند أناس الشرق الأوسط، لا تصادفه في أية منطقة أو قارة أخرى".

قال طاهر بالكردية: "الظاهر إنها من تراب أورفة".

نزل القائد إلى الطابق الأول، وعليه معطف وبيجامة رياضية، أتينا له بحذائه الرياضي الـ(adidas) لإحتمال قيامه بالرياضة، فانتعل الحذاء الرياضي بدل حذاء الـ " مافيستو". هذه المرة سيصطحبنا طاهر أيضاً، لا يوجد سبب خاص لمجيئه إلا أنه يريد المجيء وفور خروج القائد، تحركت عناصر الحماية الروس الذين سيرافقوننا. الحماية أناس آخرين هذا اليوم، ولكن نظام المشي نفسه، واحد في المقدمة والآخر في الخلف. قال تايهان لطاهر بدون تآخر:"وأنت أسرع وإذهب لذاك، سر خلفه مباشرة".

أسرع على اثر ذلك وسار على مسافة ٥٠ متراً أمامنا، خلف الحماية تماماً، كان كل يوم يمر، يبرد معها الجو، الريح تلفح وجوهنا وتبعثر شعر رأسنا. القائد يحاول تغاضي البرد، سرنا على نفس الطريق، فاصلاً لا يوجد طريق آخر نذهب فيه وستكون مسيرتنا الصباحية من الآن فصاعداً على هذا الطريق. بدأ القائد الحديث مع تايهان، فأقتربت لأستطيع الاستماع لحديثهم:"هل درست في أنقرة..؟".

ـ نعم قائدي، في ODTU ـ قسم التاريخ.

القائد أيضاً كان قد درس العلوم السياسية في أنقرة

ـ هل عملت بين التنظيمات التركية اليسارية.

ـ قبل التعرف على PKK، عملت مع حركة اليسار، الطريق الثوري DEV YOL.

متى ما يتم الحديث عن ثوار أعوام الثمانينات، أتذكر أخي الكبير عزيز. ففي أعوام الثمانينات كان واحداً من مناضلي حركة اليسار، جرح في كتفه أثناء الاشتبكات مع الشرطة في حي kecioren التابع لأنقرة، بعدها ألقوا القبض عليه وبقي في سجن ماماق لأعوام طويلة. وفي ٢٧ أيار من نفس السنة ولد أخ لي، فأطلق عزيز اسم" نظام الدين أورهان غازي" على اخي المولود حديثاً؛ هذا الاسم كان لمناضل في الحركة اليسارية سقط شهيداً اثر اشتباك نشب في استنبول، ومثله مثل الذي أخذ اسمه منه، فنظام الدين أيضاً انضم إلى الأبطال الذين سطروا التاريخ في ديار بكر عام ١٩٩٨ .

-" إذا درست التاريخ في ODTU، هل تعرف التاريخ جيداً..؟

قال تايهان بلهجة متواضعة:" ليس بالقدر الكافي قائدي".

وعند وصولنا لمفترق الطرق، أشار القائد إلى طريق ثانية لم نسلكه بالأمس، كذلك من أجل رؤية طريق جديد واستخدام اتجاهات متغيرة أيضاً. وهي جيدة من الوجهة الامنية؛ فنحن نستخدم هذا الطريق حتى هذه النقطة مجبراً، ولكنه بعد المفرق يكون اختيارياً. سنستخدم كل يوم طريقاً جديدة.

وفي الغابة بدأنا الرجوع. المروج اليابسة مرنة ومبتلة بندى الصباح الذي أخذ يتسرب إلى احذيتنا. الجو غائم، أشعة الشمس شاحبة، تظهر تارة وتختفي تارة وراء الغيوم.

ومع رجوعنا بقي طاهر خلفنا، والذي كان يسير خلفنا الآن غدا أمامنا بخمسين متراً. عندما اقتربنا من الفيلات ظهر أمامنا فجأة عند منعطف الطريق، رجل وإمراة في منتصف العمر، يرتديان بيجامة رياضية ومعطفاً، وهم يسيران نحونا مباشرة. هذا الوضع غير المتوقع أدخلنا في حالة اضطراب. هل سيحصل شيء يا ترى، هل سيقومان بشيء..؟ طغى علينا القلق بعد التفكير بذلك. وإن حصل شيء للقائد..؟ هذا ما كان يقلقنا دائماً، لأننا بين أناس لم نثبت ماهية نيتهم ولا نعرفهم. بدون إعطاء خبر للحماية من غير الممكن أن يلقوا خطوة واحدة هنا... فهؤلاء يفتشون حتى السيارة التي خصصت لنا عندما نخرج للتسوق. أليس من الممكن أن يظهر من بينهم واحد ذو نية سيئة..؟. هذا السؤال كان يخيفنا، لأننا لانملك

وميترافانوف ولوكشينكو المعلقة على الجدار، ثم أدار نظره نحو الأدوات الغريبة وغير المفهومة، وبعد فترة التفت إلينا، وقد وضع اصبعه على شفتيه وقام بحركات تنم عن التزام الصمت، وكقائد فرقة موسيقية أشار إلى الصورة المعلقة على الحائط بحركات اليد والجسد، وهمس: وقعنا في يد إليهود. وقعـ...نا، في ...يد، إليهـ....ود... ماذا سنفعل...؟"

عندما فعل ذلك كان غريباً جداً، وكأنه يريد إخبارنا بشيء ما. رفع كفة يديه نحو الأعلى وقالها واحدة واحدة: وقعـ...نا، في ....يد، اليـ...هود.

****

القائد في غرفته، وروزرين خرجت لتتصل باليونان لمعرفة التطورات... بعد دخول القائد لغرفته لم ينزل في ذلك اليوم.

جاء مجيد وذهب إلى القائد، وبعد المقابلة عاد ثانية وبدون أن نسأله بدأ التكلم: "من أجل موافقة يلتسن على طلب اللجوء السياسي الذي وافقت عليه الدوما، سيتم تعيين عدة أشخاص ممن يملكون إمكانية التأثير عليه، وذلك عن طريق الأصدقاء، ومن هؤلاء ابنة يلتسين. الآن هذه المرأة سياسية ومستشارة غير رسمية لعدة مراكز، مثل جهاز القرار. ولدي علاقة غير مباشرة مع هذه المرأة. وسأعمل على استخدامها".

بقينا صامتين. وبعد مغادرة مجيد تحدث تايهان بغضب:"لم أرتح لهذا الرجل، وليس من عادتي الاقتراب من الإنسان بحكم مسبق، لكن هذا الرجل يقوم ببعض التصرفات الغريبة؛ انه كردي روسي، يعمل من أجل القائد، ثري، شرطي للانتربول، لديه علاقات مع الدولة..!".

جاءت روزرين وقالت:"الأصدقاء سيحجزون طائرة خاصة وسيأتون".

قالتها وصعدت إلى القائد. ساد الإنتظار والصمت في الطابق الأول، الكل يفكر بالمكان المجهول الذي سيذهب إليه القائد، الجميع قلقون يتساءلون: ماذا سيحصل..؟ الكل يفكر لوحده في زاوية ما.

*****

عندما كنا على المائدة في الصباح الباكر جاءت السيارات التي بتنا لا نرتاح لرؤيتها، نزل جيرنيوفسكي من إحدى السيارات، ومن إحداها

ستنتهي التحضيرات خلال عدة أيام". ثم صعدت للطابق العلوي لإعطاء المعلومات للقائد.
بقيتُ مع تايهان وحيدين في غرفتنا محطمي المعنويات، في صمت وذهول، وفجأة..! اخترق تايهان هذا الصمت قائلاً:
"الأمور لا تسير نحو الأفضل، ليس جلياً ما سيفعله هؤلاء، إنهم يمارسون السياسة لدرجة خيانة جذورهم. لا توجد لديهم صداقة ولا سياسة مبدئية، كل شيء تحول إلى مصالح مادية، ما أخشاه أن يأخذوا مبالغ طائلة مقابل...
ربما أن روسيا تعيش أصعب فترات حياتها منذ إنهيار الاتحاد السوفيتي، الإنحلال في كل مكان حتى باتت النسوة تبعن أجسادهن في الآونة الأخيرة لقاء تأمين طعامهن. وتشير كل الأخبار الأخيرة إلى أن الشعب يعيش في بعض المناطق إنحلالاً خلقياً نتيجة العوذ. فخطر الإنفجار الاجتماعي تحدق بها. روسيا جائعة وجيرنيوفسكي ذهب لأنقرة. ماذا فعل هناك ياترى، عما تحدث...؟ هل كان القائد موضوع النقاش..؟ جميعها أمور مجهولة، ضعها كلها جانباً..". توقف...ثم تابع كلامه بشكل متقطع.
-"في هذه الفوضى ما أخشاه أن يحصل مكروه للقائد، في هذا الضباب الذي لا يُعرف فيه الصديق من العدو". نطق بهذه الكلمات وتمدد عل السرير لينام.

****

كان يتمشى في الحديقة صباحاً، كلٌ منا توقف في ناحية من الحديقة. أحس القائد بالبرد فاغلق معطفه قائلاً:"الجو هنا لا يناسبني".
(موجها الكلام لروزرين): "اليونان أيضاً بمستوى البحر، هل نستطيع تأمين مكان في غابة وعلى جبل لنبقى فيه..؟"
-"نعم قائدي. هناك أماكن كثيرة على تلك الشاكلة في اليونان".
-"الجغرافيا والمناخ هنا لا يناسباني. من ناحية التفكير يكون من الأفضل أن يكون في المكان خضرة وجبال وهواء البحر الساخن..".
في هذا الجو البارد لا يمكن البقاء في الخارج. عبرنا إلى الغرفة التي تحتوي على الادوات الرياضية. تمعن القائد في صورة جيرينوفسكي

أية وسيلة أو أداة نحمي بها القائد، كل ما نستطيع فعله هو استخدام أجسادنا كدروع في مواجهة أي طارئ محتمل. وبمعنى آخر القائد بين أيديهم..
في هذا الطريق الذي لا يطير طائر فوقه ولا تمر به قافلة، ماذا يفعل هؤلاء الناس..؟ هناك عدة احتمالات؛ فمن الممكن إنهم يسكنون إحدى المساكن القريبة، وقد خرجوا للمشي الصباحي. لكن هذه الفيلات تظهر وكأنها خالية تماماً. ورغم إنني تفحصتها بدقة متناهية، لم أر ما يدل على الحياة في هذه البيوت باستثناء البعض منها، حيث يمكن مشاهدة أبوابها والمناوبين، وهذا يدل على أنهم يستخدمونها في شهور الصيف أثناء العطلة.
هذا بالإضافة إلى التساؤل لماذا المشي في هذا الصباح..؟ هذه الأسئلة وغيرها تقلقنا خصوصاً بعد اقترابهم أكثر، فهمت من حالة تايهان النفسية بأنه يشعر بما أشعر به، في هذا الوقت تخلف تايهان عن القائد قليلاً، واقترب مني سريعاً وقال في أذني:" أقترب جيداً من القائد وخذ وضعية حيوانية ".
يظهر بأن الآخر قلق أيضاً، وعلى أثر كلامه اقتربت كثيراً من القائد. لكنني لم أفهم كلامه "خذ وضعية حيوانية". إلا إنني أناسبه بمعنى "كن حذراً". مستخدماً نسبة قابلية الادراك والانعكاسات لجميع أعضاء الحواس. القادمون باتوا قاب قوسين أو أدنى. مروا بالحماية وهما يلقيانه بنظرات متفحصة ومدققة له، يقتربون أكثر والمسافة تتقلص بيننا. بتلك الحالة النفسية التي نعيشها، نحلل كل نظرة وكل تصرف بالشكل الذي نريده. من نظراتهم حصلت على نتيجة مفادها "هذان الشخصان سيئان". تايهان التصق بالقائد من الطرف الآخر والقادمون يقتربون أكثر. ماذا لو حصل شيء..؟ هذا السؤال كان يسّرع من ضربات قلبي. هل يوجد شيء تحت معاطفهم..؟. الاثنان ينظران بغرابة شديدة. ويتفحصان القائد بتلك الغرابة. قصرت المسافة بيننا إلى متر أو اثنين، وبنفس النظرات مروا بجانبنا. بعد عبورهم ارتحنا. الظاهر ان الحالة النفسية التي نعيشها جعلتنا نشك أكثر من اللازم. شخصان خرجا للتنزه في الغابة.

الوضع الذي أدهشني أكثر هو أن القائد لم يتملكه القلق الذي انتابنا. وهي من إحدى الخصائص الرئيسية التي رأيتها فيه أثناء اللحظات التي عشناها، فهو يحافظ على برودة أعصابه في كل وقت ومكان؛ لا يرتبك قط. حتى في أكثر الأوقات العصيبة تراه يحافظ على هدوئه مثل محيط ساكن.

عندما دخلت البيت لم أكن أحس بإذناي من شدة البرد، ولفحت انفي سخونة. بعد برهة من الزمن بدأت الحرارة تدب في جسمي الذي كان قد تشنج نتيجة القلق والبرد. وقد ارتخى الآن مع تأثير الشاي أيضاً. الآن انني مستعد للتكلم:

سألت الرفيق تايهان:"عندما كنا في طريق العودة وصادفنا الشخصين، قلت حينها خذ وضعية حيوانية، ماذا يعني وضعية حيوانية..؟.

تايهان الذي كان يخفي ضحكته خلف شاربيه:

ـ في إحدى المرات عندما ذهب "بيلغاسو ارنوس" إلى الأكاديمية للقاء مع القائد ـ حتى إنه قدم عرضا مسرحياً ـ فانه قيم القائد قائلاً:" لديكم وقفة حيوانية جداً". يعني في لحظة واحدة يستطيع أن يعبر عن أكثر من سجية؛ يعرف كيف يقوم بوقفاته في أوقات لا تأملها أبداً، يظهر وقفات لا تتوقعها.

****

بعث ماهر صحناً هوائياً كبيراً في ذلك اليوم بسيارة نقل صغيرة، وتلفزيوناً كبير الشاشة. وضعنا التلفزيون في غرفة عمل القائد، وفي الخارج عمل طاهر لتوليف الهوائي. القائد هو المحور الذي يدور حوله التطورات السياسية، لذلك يقرأ جميع الصحف التي تأتي بدون انتظام، ويقرأ الكتب التي جلبها فهو يريد أن يتلقى جميع التطورات الحاصلة في كل يوم، أما الآن فهو يستطيع ان يراقب التطورات بشكل أفضل، لأن توليف التلفزيون انتهى مبكراً والآن يمكنه مشاهدة جميع القنوات.

باقتراب ساعة الأخبار في ذلك المساء، فتح القائد التلفزيون واستمع باهتمام لجميع الأخبار التي إذاعتها قنوات الأخبار، وهو ينتقل من قناة

روسيا. الدولة لا ترغب في بقائي هنا. صداقة هؤلاء بهذا القدر... سيصرون... إلى أين نستطيع الذهاب..؟ إلى أين نستطيع الذهاب..؟"

روزرين مباشرة: "قائدي، يستطيع القائد الخروج إلى اليونان. إنني أخبرت القائد بنتائج مكالمتي مع الأصدقاء. باتصال هاتفي نستطيع البدء بالتحضيرات في اليونان؛ نستطيع نقل القائد بطائرة خاصة بواسطة الأصدقاء.."

استمع القائد بدقة. وهو لا يزال يتمشى بخطوات بطيئة بيننا في الممر، وسأل: "حسناً هل هناك مكان آخر غيره..؟ إلى أين نستطيع الذهاب..؟

ماهر: "قائدي، يمكن الذهاب إلى روسيا البيضاء، فلجيرنيوفسكي قرابة مع لكشينكو رئيس روسيا البيضاء. وعدا ذلك فروسيا البيضاء مكان بعيد عن الأنظار والظاهر إنه بلد لا تصله تركيا. حتى السفارة التركية غير موجودة في هذا البلد. بلد ليست له علاقة سياسية أو اقتصادية مع تركيا.".

القائد: "اتصلوا مع أوربا أيضاً، ابحثوا عن أرضية هناك أيضاً... أو إمكانية البقاء في البلاد الأوربية أيضاً. اتصلوا مع الأصدقاء، والأشخاص الذين نعرفهم، القريبين منا...".

بعدها اتصل ماهر مع مكان ما بهاتف الجيب ومن ثم صعد للاعلى. كان يتكلم بغضب في الهاتف. تذكرت حينها كلامه في بداية مجيئنا لهذا البيت "سنبقى سراً في هذا البيت، لن نتكلم مع أحد". وكلامه هذا يدل على أن وضع "السر" أيضاً زال تلقائياً بعد تطورات اليوم. فمن اليوم وصاعداً سيتصل بالهاتف مع عدة أماكن وعدة أشخاص.

روزرين وطاهر خرجا من المنزل من أجل المكالمة الهاتفية. وماهر يتحدث مع هجار:

"اذهب في أول فرصة إلى روسيا البيضاء، يجب تهيئة أرضية هناك على وجه السرعة ليستطيع القائد الذهاب إليها. يجب ان تصبح روسيا البيضاء باباً مفتوحاً في كل الأوقات". أنهى كلامه وغادرا سوية.

عند المساء جاءت روزرين، ودون أن نسأل قالت: "تكلمت مع الأصدقاء، بدأوا بالاستعدادات اعتباراً من الآن. إن لم يظهر أمر طارئ

صعد القائد ثانية على الميزان وكنتُ بجانبه، عندما رأيت الرقم الذي أظهره، قلت بتعجب" هي ..." طبعاً قلتها في داخلي..
وزن القائد كان (١٠٩) كيلو بالتمام. ترك الميزان وهو يضحك ويضرب بطنه بيده:
"كيف سأذيب هذا البطن..؟"
ـ "قائد؛ القائد يتحرك حسب توقيت سوريا، ولهذا يتناول طعام العشاء متأخراً جداً وأكثره يكون دسماً، من الأفضل أن يضبط القائد ساعته حسب روسيا وأن يكون العشاء خفيفاً وبهذا سيقل الوزن".
ـ هكذا إذاً..! إذاً أخبر الرفاق كي يغيروا ساعات الطعام، وان لا يكون الطعام دسماً فلا حاجة إلى التنوع وبهذا الشكل".
ـ حسناً قائدي.
بعد هذا الحوار صعد لغرفته في الطابق الأول. عند الظهيرة جاءت السيارات المرافقة لجيرنيوفسكي وميترافانوف. جيرنيو فسكي هذه المرة كان متوتراً بدل الهدوء الذي كان عليه دائماً، أما وجه ميترافانوف فكان قلقاً مضطرباً بقي المرافقين الروس في الخارج، أما هم فصعدو إلى حيث القائد وبعد برهة جاء ماهر ومجيد أيضاً، وكانوا على موعد في تلك الساعة.
ماهر:"هل جيرنيوفسكي موجود لدى القائد..؟"
أجبته:"أجل جاؤوا قبل قليل. صعد ماهر ومجيد أيضاً إلى هناك، استمر اللقاء طويلاً هذه المرة. أثناء نزولهم كانت الابتسامات الدبلوماسية مختفية، وعوضاً عنها خيم الصمت على الأجواء. لا يمكن قراءة أي شيء على الوجوه. جيرنيوفسكي وميترافانوف غادرا المكان بعد قليل مودعين.
جميعنا اصطفينا في الممر على اليسار وعلى اليمين. طاهر، روزرين، ماهر، مجيد، هجار، تايهان وأنا، القائد كان يتجول بيننا في الممر، بدأ بالحديث بنبرات صوتية ثقيلة:
"ذهب جيرنيوفسكي إلى أنقرة وعاد، أعطوني جواز سفر روسي، وافقت الدوما على إعطائي حق اللجوء السياسي، والآن يطلبون مني الرحيل عن

لأخرى، يتوقف عند الأخبار. أحياناً يستمع إلى الموسيقى إلى ان تنتهي، يستمع إلى سزان اقسو، باريش مانجو، أوزدمير اردوغان، عارف ساغ، وفي إحدى المرات رأيته يتابع زارين أوزر.
بعد فترة سيتم حل مشكلة الصحف أيضاً. إذ ستأتينا بانتظام الصحف التركية التي تنشر في موسكو بعد يوم من إصدارها. ومن أوروبا سترسل لنا بالفاكس جميع كتابات الزوايا وأخبار أشهر الصحف. امتلأت طاولة عمله، الصحف موضوعة بانتظام حتى يبدو كأنها قد أخرجت لتوها من الرزم ولم يمسها يد. يتفحص كل الجرائد، ثم يرتبها على الطاولة حسب تسلسلها بنظام كبير. يستمع بدقة إلى أخبار MED TV وللموسيقى التي تبدأ قبل الأخبار. لاشك ان الإنسان الذي يحب الاستماع إلى الموسيقى هو إنسان قوي العاطفة، يحس بعظمة ما يعيشه في قلبه والموسيقى تحرك عواطفه وتأخذ بتفكيره لأماكن لا يأملها. يحيي في مخيلته ذكريات وخيالات مختلفة انسجاماً مع الموسيقى. وهذا الوضع يؤثر في عمق نفسيته.
بعد سنوات سيقول القائد في الجزيرة التي سجن فيها جواباً لسؤال الصحفي:" هل تستمعون للموسيقى..؟." لا استمع للموسيقى..! نفسيتي غير مستعدة لذلك".
كان يطفئ التلفاز بعد الأخبار إن لم يكن هناك برنامج جيد. يبقى صاحياً حتى منتصف الليل. فإما ان يقرأ من هذه الساعة أو يبقى يفكر لساعات. يستيقظ كل صباح باكراً وفي نفس الساعة، بعدها تسمع اللحن الحزين أو صوت ماء دوشه الصباحي....
اليوم يوجد فقط صوت الدوش، سينزل بعد قليل من أجل المشي الصباحي. وها هو نازل مرتدياً بيجامته الرياضية.
كانت عيناه في هذا الصباح تنظران للبعيد. ومن ينظر إليهما يدرك بانه شارد، يسرح بخياله في أماكن أخرى. تذكرت تمثال الرجل المفكر الذي صنعه النحات المشهور "رودين". خرجنا دون أن ينطق بأية كلمة. عيناه تنظران دوماً إلى الغابة وصفحة السماء. حالته النفسية تنطبع على ملامح وجهه. يظهر أحياناً وهو يتمتم دون أن يُفهم شيئاً ويضحك أحياناً. أما

الطابع الحاكم فيه فهو تفكيره المتواصل دون أن يقطع نظراته للبعيد. لم يتكلم القائد هذا الصباح..! والوحيد الذي تكلم معه هو نفسه.
روزرين وطاهر خرجا بسيارة الجيب لتأمين حاجات المطبخ، ولتتصل روزرين هاتفيا باليونان.
القائد كان قد أصيب في كبريائه عندما لم تسمح اليونان له بالبقاء فيها. عندما خرج القائد من الشرق الأوسط جاء إلى اليونان في البداية وظهرت حقيقة صداقة اليونانيين. أجل رفضوا بقاء القائد:"إن لم تخرجوا من بلادنا، سنقوم بما يتطلبه عضويتنا في الوحدة الأوروبية". لقد اصابت تلك الكلمات كبرياء القائد.
وأثناء الرحلة إلى موسكو قالت روزرين:" قائدي، انها المرة الأولى التي أُهزم فيها طوال حياتي". رد عليها القائد:" أيتها الغبية؛ أنتم شخصيات انهزامية أصلاً".
لذلك فإن روزرين تبذل جهداً حيثيثة لتثبت نفسها. كل يوم تقريباً تخرج لتقوم بالاتصال الهاتفي. يوجد هاتف في غرفة عمل القائد أيضاً ولكنه لا يستعمله بهدف الحماية والسرية. روزرين تتصل بروجهات فهو الذي يهتم بالعلاقات التنظيمية في اليونان. أعرف روجهات منذ إن كنت في اليونان، لكن العمل الذي يقوم به غير ذلك. وتقول روزرين بأنها تتفأوض مع "الأميرال القديم الصديق كلانداريس، ونغازاكس". من هذه الشخصيات سيلعب نغازاكس فيما بعد دور يهوذا الأسخريوطي المعاصر.
روزرين تبغي من هذه الاتصالات تحضير مكان للقائد في حال حدوث طارئ.
القائد كان في الطابق الثاني، سمعنا صوت سيارة توقعنا عودة طاهر وروزرين لكننا أخطأنا فهذه كانت سيارة ماهر. وعندما أعلمناه بأن القائد يجلس في الطابق الأعلى صعد إليه مباشرة. كان مع ماهر شخص آخر في منتصف العمر يرتدي بدلة مدنية، له بطن بارز، مضطرب وخجول، لم ألتق به من قبل، وبنقاشه مع تايهان فهمت بأنهما يعرفان بعضهما. بعد ذلك قال عنه بإنه صديق للحزب، مؤيد، وطني ومثقف. ففي روسيا هناك الكثير من الناس الذين يدعون بأنهم مثقفون أو تليق بهم هذه الصفة.

الدوما، انضم ماهر مباشرة إلى الأخبار الكردية، وفي كلامه كان يرسم صورة إيجابية للموقف. جميع القنوات عرضت نفس الخبر.

***

بدأنا يومنا بالمشي الصباحي ومن ثم بمباراة كرة المضرب ٢ -١ . بعدها دخل القائد الحمام البخاري، كنت أنتظر في الغرفة الجانبية لصالون الرياضة. حيث تفحصت الغرفة وتفرجت على الصورة المكبرة لجيرنيوفسكي وميترافانوف ورئيس روسيا البيضاء "ليكاشينكو" المعلقة على الحائط. الظاهر أن هؤلاء أصدقاء حميمين. هل ان أيديولوجياتهم قد قربتهم من بعضهم..؟ وما عدا ذلك توجد تلك المصابيح الـ(SPOT) الملونة والتي لا أعرف كيفية استخدامها. كذلك هناك أشياء أخرى موضوعة على الحائط لا أعرفها، إنها مثيرة للاهتمام. قلت في داخلي:"لا داع للانشغال بها، فلتكن هناك". بقي القائد داخل الحمام فترة أطول مقايسةً مع الأيام السابقة. في تلك الأثناء وأنا أفكر بهذا الأمر، خرج وهو يمسك برأسه، ووجهه ممتقع.
-"شعرت بالدوار، كنت على وشك الوقوع. إن حصل لي شيء ماذا كنت ستفعل...؟"
-"...!؟"
-"دعك من هذا... ماذا ستفعلون لو حصل لي مكروه أو قُضيَ علي..؟"
لم أتكلم، ولم أكن أعرف ماذا سأقول. صعد إلى الميزان الموضوع بجانب الدراجة، وعندما رأى الرقم المكتوب. قال متحيراً:"ها ي..." وصعد مرة ثانية
- هل ما يظهر صحيح. تعال اصعد لنرى".
صعدتُ الميزان، قال القائد:"كم هو وزنك..؟"
- قائدي ٧١كغ
- هل الوزن صحيح..؟. انت أيضاً إزداد وزنك...؟.
- إزداد ١٥ كغ
ضاحكاً:- أنت أيضاً إزداد وزنك أليس كذلك..؟.

جمعت كافة الكرات داخل المثلث الخشبي في منتصف الطاولة، ووضعت الكرة البيضاء في سوية الاطلاق، ثم ضربت الكرة بقوة بعثرت الكرات جميعاً.

ـ والآن، هل سأرمي هذه الكرات في الفتحات..؟.

ـ نعم قائدي.

عندما كان يأتي دوري كنت أُقرب كراتي وكرات القائد من الفتحات. أثناء المباراة حضرت روزرين. من هيئتها تظهر بأنها ستذهب، قالت:"قائدي، إنني ذاهبة للمكالمة، قبل الآن أعطينا موعداً في المطعم بالفندق، الأصدقاء سيأتون اليوم إلى هناك، وسأتوقف على موضوع تحضير الأرضية لذهاب القائد إلى اليونان في حال حدوث أي طارئ وتقوية الاستعدادات".

ـ"حسناً، اذهبي يجب بناء علاقات صحيحة. تعلمين ماذا حصل لنا قبل الآن في اليونان. وأنت شاهدة على ما نعيشه هنا... حسناً اذهبي..."

ـ"تمام". قالتها ثم خرجت.

بعد استراحة قصيرة تابعنا المباراة. عندما اقتربت الكرات من الفتحة قال باغتباط مشيراً للكرة:

" هذا هو الهدف أليس كذلك".

ـ صحيح قائدي.

انتهت اللعبة والرابح هو القائد. في النهاية نظر إلى العصا ورماها على الطاولة:"لا يوجد لهذه اللعبة فائدة".

لعبة البلياردو اليوم كانت الأولى والأخيرة، لن نلعب البلياردو بعدها أبداً، وعند المساء رجعت روزرين. سألتها:"كيف كانت المكالمة".

ـ "جيدة، أخبرنا الأصدقاء بأنه في حال مجيء القائد إلى اليونان هذه المرة، في البداية إن لم يوافق مسؤولو الدولة رسمياً على مجيئه فإنهم سيعملون على اسكانه في مكان مضمون وآمن حتى يتم تأمين القبول رسمياً. ومن الآن سيؤمنون طائرة خاصة من أجل الذهاب إلى اليونان متى ما أردنا".

بعدها صعدت لغرفة القائد من أجل إخباره بتفاصيل المكالمة. في المساء كنا في غرفة الرياضة نتابع الأخبار في التلفزيون. الأخبار تشمل قرار

نزل ماهر بعد نصف ساعة. وقال مخاطباً الرجل الذي قدم برفقته: "القائد يريد التعرف عليك، اصعد للأعلى" ومع كلماته صعد للطابق الاعلى .

قال ماهر لنا:"إن تعارفاً كهذا فقط والتقاء هؤلاء مع القائد يزيد من ارتباطهم، ويخلق تأثيراً على الجوار والمحيطين به".

نزل ذلك الرجل بعد برهة. رؤية القائد كانت قد هزته هو الآخر، في حين كان ماهر يهم بالخروج قال :"سيأتي جيرنيوفسكي بعد عدة ساعات للقاء بالقائد".

من هو جيرنيوفسكي هذا، وأي نوع من الناس هو..؟ يقولون عنه"مضياف، صديق". من هو هذا الشخص الذي يأخذ من إنسان دعاه إلى بيته /١٥/ ألف دولار مقابل بقائه ضيفا لديه..؟ ما أعرفه إن جيرنيوفسكي أصبح موضوعاً للأخبار عدة مرات عندما كنت في تركيا. أتذكر بإنه مر في إحدى الأخبار " فلاديمير جيرنيوفسكي القائد القومي المتطرف". مرة أخرى أثناء برنامج حورأي مباشر في التلفزيون حصلت مشادة كلامية، التقط على اثرها كأس الماء الذي أمامه وقذفها في وجه الشخص الذي يناقشه. هذا ما تبقى في ذاكرتي. والمفهوم بانه انسان يتاجر كثيرا. حسناً، وماذا سيكون موقف هذا الشخص من القائد..؟ بالتاكيد سيكون على أساس المصلحة. إنه يخوض السياسة على اساس المصلحة. هل ستكون هذه السياسة وفق مبدأ حماية المصالح المشتركة..؟ هذا ما كنا نجهله. الشيء الوحيد الذي فهمناه، إن لعبة الشطرنج بدأت لتوها. الحملة الأولى قد لعبت.

بعد عدة ساعات جاء ماهر وجيرنيوفسكي ورستم برويي. برويي هو العضو الوحيد الممثل للكرد في مجلس الدوما(البرلمان)، وهو من كرد روسيا، جاء ليقوم بالترجمة بين القائد وجيرنيوفسكي أثناء المقابلة. جاء جيرنيوفسكي مع حرسه الخاص. الحرس الموجودين في البيت هم أيضاً من حرسه. وعندما لمحوا جيرنيوفسكي بدأوا يظهرون الاحترام بإنفعال. قابلناه عند الباب. شعره اشقر غامق ضارب للحمرة، بشرة بيضاء، يلبس بدلة دون ربطة عنق. تصرفاته الطبيعية تسترعي الدقة. قال لنا بالتركية:"مرحباً..!". تعجبنا لأول وهلة وتصورنا إن الكلمة مجرد دعابة ومجاملة، واعتقدنا أنه لا يعرف سوى كلمة مرحباً، لكننا أخطأنا فهو

يتحدث تركية ركيكة. لكنها ليست سيئة بالنسبة لروسي. وسنعلم فيما بعد كيف تعلم التركية؛ لقد قام ولفترة طويلة بمهمة في الاستخبارات الروسية كمختص في الأمور التركية. يداه في جيوبه يتصرف وكأنه في بيته، يضحك ويتكلم بالروسية مع برويي. حرسه الخاص كانوا ينتظرون في الخارج عند عناصر الحماية الآخرين. بعدها صعدوا إلى القائد. بالتأكيد بقاء القائد في روسيا سيكون محور اللقاء، لأن جيرنيوفسكي هو أحد اركان الدولة وواسطتها، من خلاله ستعكس الحكومة الروسية سياستها، ما رأيناه حتى الآن كان بمثابة الصديق.

سيارة أخرى دخلت الحديقة واقتربت من باب المنزل. دخل طاهر وروزرين وفي أيديهم أكياس فيها الخضار إلى ما شابه ذلك من مستلزمات المطبخ، كما كانوا قد اشتروا كاميرا تصوير، لأنه لم يكن بحوزتنا حتى الآن كاميرا أو مسجلة، ومن الآن فصاعداً سنوثق حياة القائد بالصور. منذ سنوات يتم تسجيل حياة القائد اليومية بكاميرا فيديو، أو كاميرا تصوير أو مسجلة. أما نحن فقد تأخرنا في ذلك، فمنذ ان قدم القائد إلينا كان علينا ان نوثق هذه المرحلة الهامة والتاريخية. تمنينا لو كنا نملك كاميرا... قد تغدو هذه الصور التي نلتقطها وثائق هامة في المستقبل.

قال تايهان لروزرين:" كيف سارت الأمور..؟".

أجابت:" تحدثت مع الأصدقاء المتوأجدين في اليونان. أحاول خلق الامكانيات بواسطتهم. لكي لا تتكرر النيتجة التي قابلناها قبل الآن.

بعد ساعة من المقابلة نزلوا جميعاً؛ القائد، جيرنيوفسكي، برويي وماهر. عندما كانوا ينزلون الدرج ساد جو دبلوماسي ثقيل؛ ضحكات غير مرغوبة، مشاهد اللطافة... القائد يودع ضيوفه بنفسه، فهو يفعل ذلك دائماً وبدون أي تمييز. وفيما هم ينزلون التقطت لهم عدة صور من مواقع متفرقة. سُر جيرنيوفسكي بذلك وعند باب المدخل وقف بجانب القائد وردد بعض الكلمات الروسية بمعنى" التقط هكذا هذه المرة"، والتقطت الصورة عندما أخذ الوضعية تلك.

رافق القائد جيرنيوفسكي حتى مغادرته. بعد صعود القائد، أظهر ماهر قناعاته حول لقاء اليوم بلهجة الواثق من نفسه. قائلاً:"التطورات حسنة، لا

نَظرَ تايهان إلى هجار:" إن كانوا يرون القائد كحليف استراتيجي فإن يلتسن سيقبل قرار الدوما، أما اذا لم يوافق فهذا يعني أن روسيا أيضاً دخلت موضوعياً في المؤامرة". بعد هذه المجادلة صعد ماهر وهجار إلى القائد، ثم ما لبثوا أن عادوا أدراجهما. جلس ماهر في الصالون قليلاً ومن ثم ذهب، أما هجار فسيبقى معنا.

الطقس في المساء كان بارداً جداً. في الحقيقة يكون من الأفضل هطول الثلج لأن البرودة تقل مع هطول الثلج. بعد تناول الغداء نزل القائد.

ـ"هل الجو باردُ في الخارج".

قلت:"نعم قائدي هناك بردُ قارس".

ـ أليس بمقدور المرء المشي في الحديقة..؟

بَينتُ رأيي: "قائدي، من الأفضل أن لا تخرجوا اليوم للحديقة، ستبردون.".

ـ" حسناً إذاً. عندها لنذهب إلى البيت الثاني لنلعب مباراة كرة الطاولة.." قالها وسار نحو الباب. هذه المرة سيلعب مع هجار، أنا وتايهان قمنا بالتحكيم. هجار يتقن هذه اللعبة جيداً، لكنه لا يستطيع اللعب أمام القائد. النتيجة كانت عينها، آخر جولة كسبها القائد كالعادة. أثناء المباراة كان يسأل في بعض المرات:"من المتقدم..؟" لم يكن ينتظر الجواب. كان يضيف ضاحكاً:"أنا المتقدم أليس كذلك..؟"

بعد المباراة ذهب لطاولة البيلياردو. كل يوم نقوم بعدة مباريات بكرة الطاولة، لكنه لم يظهر أي اهتمام بطاولة البيلياردو، لا أعرف ماذا حصل هذا اليوم إذ تناول إحدى العصي وسأل:"كيف تُلعب هذه اللعبة.

جاوبته:"هذه الكرات المرقمة والملونة لطرف، والكرات الأخرى المرقمة والملونة أيضاً يصبح خصمك. يتطلب ان تضع كراتك داخل الفتحات بهذه الكرة البيضاء. أما هذه الكرة السوداء اللون والمرقمة بـ /٨/ يجب ان تكون آخر كرة تقع في الحفرة".

رفع العصا التي في يده:"حسناً وكيف تستخدم هذه..؟"

رفع العصا في الهواء من خلف ظهره، نافخاً وجنتاه. في وجهه علامات الشاب الذي يرغب في التعلم... أخذت العصا ووضعتها بين أصابعي وشرحته كيف سيضرب وقال:" تمام هيا لنبدأ".

كان يتابع النظر بعيونه التي تنتظر الجواب، لكنني ودون أن أعطي الجواب تهربت من النظر إليه.
-"ماذا أفعل..؟"
-"...!".
بعد أن تمش فترة في الحديقة: "قد لا يكون الذنب ذنبكم. لقد قلت في الفترة الأخيرة لبقائنا في الشرق الأوسط: ولدتم خطأً وتربيتم خطأً، ولهذا السبب لا تتغيرون. طورت هذا التحليل... رغم كل شيء لا أطلب منكم شيئاً، يكفي هذا، استخدموا حقكم في الحياة بحرية". بعد هذا الكلام دخلنا المنزل، فاطمة وطاهر كانا يتابعان الأخبار في الصالون. عندما سمع القائد صوت التلفزيون الروسي. لم يتجه لغرفته بل توجه إلى الصالون. نظر إلى فاطمة وطاهر: "هل يوجد خبر في التلفزيون الروسي".
تكلم طاهر بتسرع وهيجان: "أمريكا بعثت لروسيا بحقكم رسالة".
-" أية رسالة، لماذا بعثتها..؟"
تدخلت فاطمة:"قائدي، وزيرة الخارجية الأميركية مادلين أولبرايت بعثت برسالة للحكومة الروسية، تطلب فيها إخراجكم من روسيا مباشرة".
القائد وبتقاسيم متعجبة،" هكذا إذاً..! أمريكا من أجل إخراجي.."
أطلق قهقهة ثم صعد لغرفته.

*****

حضر ماهر وهجار، ماهر كان فرحاً، وقال: "صَوَتَ برلمان الدوما على طلب القائد في حق اللجوء السياسي. فمن أصل ٢٩٨ صوتاً وافق مجلس الدوما بالاجماع على إعطاء حق اللجوء السياسي للقائد مع امتناع صوت واحد فقط عن التصويت، هذه هي الخطوة الأولى، أما الخطوة الثانية فهي موافقة يلتسن. وإن قبل يلتسن حينها يستطيع القائد البقاء هنا للفترة التي يريدها".
هجار:" نظامهم البرلماني عجيب. في الحقيقة الحكومة كلها متمركزة في يد يلتسن، وهي غير مجبرة على تنفيذ القرارات التي تتخذها الدوما. فالدوما يستطيع أن يقترح على الحكومة أما يلتسن فلديه صلاحية القبول أو الرفض.."

بد اننا سنهيئ مكأنا للقائد هنا أو هناك. لن يحصل ذلك دفعة واحدة. لقاء اليوم إيجابي. لم يبق طويلاً ذهب مع برويي سوية.
هل كافة التطورات إيجابيةحقاً، هل نقنع انفسنا برؤية جوانبها الإيجابية.؟ هذا ما سيظهره لنا الزمن.

****

في الصباح خرجنا للمشي. تحدث القائد مع أحد أفراد الحماية هذا اليوم، فهو يريد ان يعرف تفكيره؛ ترى هل يعرف هذا الإنسان..؟ كيف ستتطور مواقف الدولة الروسية..؟. يريد أيضاً أن يعرف جواب هؤلاء الرجال لهذه الأسئلة. سيقوم طاهر بالترجمة. أثناء المشي قال لطاهر
"بأنه يريد التحدث معهم". وقال طاهر بدوره للحرس الأمامي، الذي أبطئ من مشيته، حتى التحقنا به. قال القائد بلطافة مؤثرة وبابتسامة من الداخل:- هل تعرفني..؟.
- نعم الجميع يعرفكم.
- هل يريد الشعب الروسي وحكومته أن يصبحوا أصدقاء للكرد..؟. هل يريد ابقاءنا هنا مدة طويلة..؟ ماذا تقول..؟.
ظهرت في نبرات صوت عنصر الحماية، الخوف والقلق. قدم جواباً وكأنه يريد التهرب من ذلك:
- لا أعلم. لكن وبما انكم هنا هذا يعني إن مواقفهم إيجابية.
ولأنه لا يريد التحدث، أسرع من خطواته مبتعداً. يظهر من نظرات القائد بأن الأجوبة التي تلقاها لم تطمئنه ومجدداً عند وصولنا لمفرق الطريق، دخلنا في طريق مختلفة. قال القائد بالكردية ملتفتاً إلى طاهر وسأله:"
كيف هم الروس..؟".
قال طاهر موضحاً:" قائدي، بعد انهيار الاتحاد السوفيتي تفشى انحلال خلقي كبير بين الشعب، خاصة جيل الشباب، فهم لا يفكرون بأي شيء ما عدا الغرائز، يشربون الفوتكا من الصباح حتى المساء".
أظهر القائد تعجبه قائلاً:"هكذا إذا يشربون بهذا الشكل..!".
كل يوم يمر تزداد البرودة التي هي من علامات الثلج. فهذه برودة الثلج. التقطنا الكثير من الصور على طول الطريق. فأحياناً كان طاهر يلتقط

الصور، وأحياناً أخرى أنا وتايهان كنا نلتقط الصور. لم نتوقف من أجل التقاط الصور، واجمل ما فيها كانت الوقفة الطبيعية. وعندما كنت التقط صورة، كنت ابذل مجهوداً لتشمل الصورة على الغابة والمروج الصفراء وصفحة السماء. القائد كان يبدي نظرات وحركات لا إرادية بين الفينة والأخرى للصور الملتقطة.

الشمس تطل من وراء الغيوم وتختفي ثانية. هذه المنطقة غائمة في جميع الفصول حتى في منتصف الصيف. وفي إحدى المرات أشرقت الشمس ولم تختفي، في هذا الجو الصحو أدار القائد وجهه نحو قرص الشمس الشاحبة وقال:"هيا التقط الآن إن كنت تريد التصوير". كنت مخطئاً في فكرة "إنه لا يهتم"، انه مهتم أكثر من استيعابي لكل شيء يحيط به.

بعد عودتنا إلى البيت بدأ القائد بتحضيراته من أجل الخروج.

أجل سيخرج القائد لأول مرة خارج البيت. ربما سيقابل أناساً من ذوي المناصب في الدولة. ارتدى ألبسة أنيقة؛ ربطة عنق بلون الخردل، ومعطفاً حريرياً أسوداً طويلاً. ظهر أنيقاً ينافس عارضي الازياء. جاءت السيارة التي جلبتنا إلى هذا المنزل لنقل القائد؛ سيارة سوداء بما فيها، حتى زجاجها أيضاً، وعليها نمرة حكومية. غادر القائد المكان بهذه السيارة.

جميع الاتصالات تهدف لخلق جو سياسي يُمَكِن من بقاء القائد في هذه المنطقة. فهل ستسفر الاتصالات عن نتيجة ما..؟

هل سيكفي النية والجهد..؟ وما هي النتيجة التي قد ينالها الصدقاء..؟ لا نعرف.

عاد القائد بنفس السيارة بعد حلول المساء. مع دخول المنزل اتجه نحو الدرج وأنا أحاول قراءة ملامحه، لكنني لم أنجح في ذلك. صعد مباشرة إلى غرفته.

سأعرف فيما بعد من خلال نقاش جرى بيننا، بأن القائد ذهب لتناول العشاء في مطعم؛ أي كان مدعواً لمأدبة دبلوماسية. هل كان اللقاء مع شخصيات رسمية تمثل الدولة..؟ ماهي مستوياتهم..؟ هذا ما لا نعلمه.

في الصباح تلقينا رزمة جرائد عن طريق الفاكس ومقطوعات من الأخبار والكثير من الكتابات وتقييمات من أوروبا والمنطقة، بالإضافة

تمشى قليلاً ومن ثم صعد لغرفته لمتابعة الحوار، وأنا عبرت إلى المطبخ واخبرت تايهان بكيفية تقابلي مع القائد عند الباب، وكيف تواجهنا وجهاً لوجه.

ابتسم تايهان قائلاً:"ما أجمل المصادفات بهذا الشكل".

بعد شرب الشاي عدنا مرة أخرى لمتابعة الحوار الذي استمر حتى ساعة متأخرة.

****

في الصباح جاءت تقارير من الوطن، هناك أخبار عن سقوط شهداء، واستشهاد أحد مسؤوليّ الكريلا في إحدى الإيالات واسمه (PILING)، واستشهاد كريلا أمميــة ألمانيــة اسـمها والـف آندريــه (ANDRE WALF)مع ما يقارب الـ ٣٠ كريلا في نفس المكان. قرأنا هذه الأخبار.

قال تايهان: "سيغضب القائد كثيراً بعد سماع هذه الأخبار. ولديه بشكل عام رد فعل كبير تجاه موقف الكريلا.. هذا ما يفهم من تحليلاته اليومية.. والآن بعد هذه الأخبار.. لا أريد أن أكون بجانب القائد أثناء قراءته لهذه الأخبار".

أخذت روزرين التقارير جميعاً في ملف نايلون إلى القائد. بعد فترة نزل القائد، حاولنا الوقوف بعيداً قدر المستطاع، لأننا توقعنا انه سيكون غاضباً. خرج للحديقة، والغضب بادٍ على وجهه ويلمح رد الفعل في عينيه، نسمع من مكاننا صوت دمدمات لا نفهمها. كان يتكلم مع نفسه. حالته تعبر عن استغراق في التفكير... كنت أقف بجانب الباب المطل على الحديقة. وعندما مر بالقرب مني أعطى إشارة بمعنى "تعالى إلى هنا". ذهبت إليه بخطوات سريعة، وبصوت غاضب ومتشكي:"ما كان يجب أن يحصل هكذا، كيف تقبلون طراز حياة تفتح الطريق أمام موت بدون معنى... وبهذه السهولة". ركز عيناه في عيني.

-" قائدي، إن هذه الشهادات أثرت علي كثيراً وآخر شهيد...".

- " هل توجد وسيلة أو طريقة أخرى..؟ ماذا هناك غيره لنفعله..؟.

- "....!؟"

إلى ملف من النايلون الشفاف وضع فيه ملخص كتاب بعث عن طريق الفاكس من أوروبا. ولتبليغ القائد كتب في بدايته: (لا يمكن إرسال كتاب "العمليات التي تمهد الطريق إلى الحرب" ولكننا قرأنا الكتاب وأرسلنا ملخصاً شاملاً عنه).

نستطيع أيضاً وبإذن من القائد ان نقرأ الجرائد وكتابات الزوايا بعد قراءة القائد لها. بعثنا له الجرائد مع الفطور الصباحي، قرأها القائد حتى الظهيرة، ودون أن نطلبها بعثها لنا لنقرأها نحن أيضاً. بدأ تايهان بتفحص ملف كتابات الصحيفة. أما أنا وروزرين فتناول كل منا جريدة، حيث هناك اخبار عن خروج القائد من سوريا والتي انعكست على تحسن العلاقات السورية ـ التركية، وتشير بعضاً من كتابات الزوايا إلى أن خروج القائد من سوريا مهد السبيل للبدأ بمرحلة جديدة بالنسبة لتركيا وكذلك لـ PKK. أما ملخص ذلك الكتاب المرسل من أوروبا لم يكن موجودا بين الجرائد. القائد كان يقرأه.

عدة مرات دق جرس الهاتف الموجود في غرفة عمل القائد، ولاننا لم نستعمل ذلك الهاتف لم نجأوب كضرورة أمنية.

سيشترك القائد هذا المساء بشكل مفاجئ في برنامج تلفزيوني بالتلفون. لم يكن أحد يعلم بشكل أكيد مكان وجود القائد، بعد خروجه رسمياً من الشرق الأوسط. حتى نحن أيضاً لم نكن نعرف هذا المكان الذي نسكنه. كل ما نعلمه هو انه مكان بعيد عن مركز مدينة موسكو.

قوى المؤامرة الدولية تتربص بالقائد، لا تعرف على وجه التحديد مكان توأجده. هناك احتمالات كثيرة، لكنها لم تتأكد بعد، والشعب الكردي أيضاً في تلهف شديد، يظهر جليا في التلفزيون والجرائد، يريدون معرفة مكان القائد وأوضاعه الصحية.

ما هي الانعكاسات المترتبة على الاتصال الهاتفي هذا المساء..؟

طلبنا الاستماع للقائد عن قرب، رد على طلبنا هذا عند إخباره بأن نتابعها من الغرفة المجاورة. يوجد تلفزيون وحيد في البيت، من هذه الغرفة نستطيع أن نلمح جزءاً من غرفة نومه.

الحزب، وأن الحزب بات معرضاً للتفكك والانهيار، لذا فان إنضمام هذا العدد من الرفاق سيكون جواباً لتلك الاتهامات.

تطرق المشاركين إلى نفس الموضوع الرئيسي، وظهر جلياً بأنه بدل الآنفكاك ظهر تلاحم ووحدة أقوى، استخدم البعض لغة النقد الذاتي. أكدوا بإصرار:"لن نقع في أخطائنا الماضية مرة أخرى". وأوضح كل مشارك إرتباطه بالقائد... إنها المرة الأولى التي يطول فيها الحوار بهذا القدر. في منتصف الليل أعطيت استراحة، لمتابعة الحوار بعده....

قال تايهان لنذهب لشرب الشاي حتى إنتهاء الاستراحة، ونتدفأ كذلك لنتخلص من النعاس.

جاوبته:"حسناً، سنأتي بعدكم". ذهب تايهان مع روزرين للمطبخ في البيت الآخر، بعدما نظرت للقنوات الأخرى أغلقت التلفزيون وخرجت. الجو مظلم جداً وبارد، أضواء البيت تنير الحديقة بعض الشيء، وأضواء الشوارع أيضاً تضيء المكان. بعد النظر لما حولي اتجهت نحو الباب كي أذهب إلى المطبخ. مددت يدي لأفتح الباب، أُدير المقبض وفتح الباب من الداخل، وفجأت... أصبحت مع القائد وجها لوجه. تسمرت في مكاني من شدة الذهول. وعندما رآني على هذه الحال؛

ـ"لماذا تقف هنا ادخل". مر إلى الحديقة بعدما فسحت له الطريق ثم التفت إليّ وقال: "تعال إلى هنا..!... هل تتابعون البرنامج التلفزيوني..؟.

ـ نعم قائدي.

ـ حسناً ما هي النتيجة التي استخلصتها...؟

ــ قائدي، تفاءلت الدولة التركية بخروج القائد من الشرق الأوسط، وأعتقدت بأنها قذفت الحجر لمكان بعيد، ولكن الحجر الذي قذفته وقع على رأسها.

ـ (ضاحكاً) "سقطت أليس كذلك..؟"

ـ نعم قائدي، لقد تطور الالتحام والوحدة بدل التفكك.

"حسناً استمروا في متابعة ما تبقى".

التلفزيون مفتوح والقائد يجلس في غرفة عمله، سيشاهد التلفزيون الذي أمامه ونحن سنشاهده في الغرفة المجاورة، وفي نفس الوقت سنستمع لصوت القائد مباشرة.

وضع القائد التلفون بالقرب منه، لابساً بيجامة رياضية؛ فهو كان يختار البيجامة لأنها مريحة. الحوار كان قد بدأ وبعد مدة بدأ صوت القائد يُسمع في التلفاز. بدأ بأطول خطاب تاريخي له على التلفاز. وضح كيفية واسلوب حبك المؤامرات في التاريخ وأرضية المؤامرة بشكل مفصل. بعدها قال لنا أي قاصدا الكريلا:"أحلل العالم وكل شيء، لكنني لا أستطيع أن أحلل شخصياتكم الممسوخة. الغفلة التي تعيشونها أسوأ بكثير من الخيانة، وتتمخض عنها نتائج وخيمة. تموتون ولاتتخلون عن هذه العادات والادمأنات، ليس بالموت والحرق وليس بالكلام. انما يتطلب بذل عمل يومي مضني... لا تملكون حس الانتقام ولا لذة الفكر، أكثركم ملّ من النضال. إذا، أعملوا".

عن ماذا سيسفر خروجه من الشرق الأوسط؛ اختصر ذلك بهذه المعادلة :"بخروجنا من أنقرة إلى دياربكر تحولنا إلى حزب، وبخروجنا من تركيا إلى الشرق الأوسط تحولنا إلى جيش، ومن الشرق الأوسط انفتحنا على العالم وسنتحول الآن إلى دولة".

كنا قد سمعنا هذه المعادلة من القائد شخصياً في المقابلة الأولى.

الساعات تمر، كان يتحدث عن الملخص الواسع الذي بعثه الرفاق من أوروبا عن كتاب "العمليات التي تمهد الطريق للحرب" نُشر هذا الكتاب في أمريكا قبل مدة قصيرة واسم بطل الرواية (تايهان)، تحدث عن مضمون الرواية وبدأت المقأيسات: "لو لم نخرج من الشرق الأوسط بهذا الشكل لأدى ذلك إلى اندلاع الحرب". تحدث ما يقارب الثلاث ساعات دون انقطاع. بعد إنهاء خطابه جاء إلى غرفتنا كانت تبدو عليه علامات التعب جراء الكلام، والعرق المتصبب على وجهه بلل حتى شعره. دخل الغرفة مبتسماً، استنشق بعمق وبنفس الابتسامة قال:"كيف كان حديثي..؟ أكان مؤثراً ُ يا ترى..؟...." دون أن ينتظر الجواب أضاف "هيا اذهبوا ونـاموا فالوقت اصبح متـآخراً. "ذهب إلى غرفته والساعة تجاوزت

ـ "جيرينوفسكي ذهب إلى أنقرة... هل لديكم علم ..؟ أولئك الناس ألن يبيعوننا..!"

ـ ليس لدي خبر، ربما ذهب ليخفف من ضغوطات أنقرة. كتبت الصحافة "أن تركيا أعطت روسيا مذكرة رسمية قبل فترة قصيرة، تطلب منها إعادتكم إلى تركيا، ولهذا السبب ربما كانت رحلة دبلوماسية".

غضب القائد، وتقطبت حاجباه: "أيها الاحمق ان KGB قد وضعتك في راحة يدها، ويلعب بك كيفما تشاء".

تدخل مجيد وبصوت متهدج: "في هذه الفترة ستصوت الدوما على طلبكم لحق اللجوء السياسي، والاحتمال الأكثر أن تتم الموافقة.

لم يواصل القائد في حديثه بل تكلم بحاجبيه المقتضبة. دخل وعلى وجهه إمارات الغضب.

ماهر ومجيد أنتظرا قليلاً من الوقت ومن ثم غادرا... سيعقد في تلفزيون MED TV هذا المساء منتدى حواري، وسيشارك فيه رفاق المجلس الرئاسي واللجنة المركزية. نزل القائد في ذلك اليوم ليذكرنا بمتابعة البرنامج. في تلك الأثناء حضر ماهر، وفي يده الصورة التي التقطناها، كانت قد ظهرت لتوها. أخذ القائد الصورة وبدأ يتفحصها الواحدة تلو الأخرى. بعد أن نظر طويلاً إلى صورته النصفية مع تايهان الملتقطة عن قرب، ألتفت إلى تايهان وقال مبتسماً:" من يظهر أكثر شباباً..؟....طبعاً أنا".

رغم أن تايهان يصغر القائد بـ إحدى عشرة سنة إلا أن الصورة تظهر القائد أكثر شباباً، فشعر تايهان قد أبيض كله وتبدوا التجاعيد واضحة على وجهه. أما القائد فقد غزى الشيب مفرقه فقط ووجهه يخلو من التجاعيد....

بحلول ساعة الأخبار تجمعنا أمام التلفزيون في البيت الثاني، والقائد يتابعه في غرفته. موضوع الحوار كان متمحوراً حول "المؤامرة الدولية المدبرة ضد القائد". إنها المرة الأولى منذ خروج القائد من الشرق الأوسط سيشترك فيه رفاق في أعلى المستويات بهذا القدر، فالصحافة التركية تدعي بأن القائد بعد خروجه من الشرق الأوسط فقد السيطرة على

أجل الاتصال الهاتفي أصبح أمراً مألوفاً، وبخروجهما أصبح الجو هادئاً. وللاستفادة من هذه الفرصة دخلت الغرفة الداخلية، سأقرأ الجرائد القديمة والجديدة وكتابات الزوايا التي ارسلت بالفاكس، وسأقرأ كتاب كلكامش الذي أخذته دون إذن من غرفة القائد، لذلك سأقرأ حتى ساعة متأخرة من الليل.

منذ اليوم الذي بدأت أعرف القائد أحس للمرة الأولى بأنني جائع للقراءة بهذا القدر؛ وأثناء الحوارات مع القائد، كنت أحس بتخلفي الفكري، هذا الوضع يولد معه طلب التعلم بشراهة، كما أن أسئلته التي يطرحها كل يوم توجه الإنسان نحو التفكير. يستشير كل من كان بجواره وفي المواضيع المهمة. لذا مهما حاولتُ الظهور أمامه بتحضير أكثر واستوعبت طرازه، إلا أن موأقفه هذه تدفعني لأن أعيش بجانبه مرارة قلة المعلومات وتخلف الفكر. ومهما كنتَ تملك من رصيد فكري متنوع فان حوارات القائد أيضاً يتطور نحو سبر أغوار رصيدك الفكري هذا.

في ساعة الأخبار انتقلنا للبيت الذي يحتوي على الأدوات الرياضية، لأن التلفزيون موجود في غرفة القائد وفي مكان تواجد الآلات الرياضية.

في موجز الأخبار جولة جيرنوفسكي لأنقرة، تعجبنا جميعاً. كل واحد يسأل الآخر، لماذا ذهب ياترى..؟ هل للقائد علم بذلك..؟ ما الهدف من ذهابه إلى أنقرة..؟. في الصباح كان الشك والقلق بادياً على وجه القائد أثناء مشيه في الحديقة.

ـ "هل كان لديكم علم بذهاب جيرنيوفسكي إلى أنقرة..؟ هل قال لأحد بأنه سيذهب إلى أنقرة..؟"

ـ إننا نبقى لدى هؤلاء الناس ولا يخبروننا، غريب! ما هي التطورات بعد الآن..؟"

بينما كان يتمشى بنفس تلك الملامح، اقتربت سيارة من باب الحديقة، ضغط على المنبه. ذهب طاهر وفتح، وقف القائد في مكانه. إذ يريد معرفة من القادم. دخلت السيارة إلى الحديقة، وبعد ما نزل ماهر ومجيد من السيارة، قال القائد بغضب لماهر.

ـ "تعالَ إلى هنا".

منتصف الليل بكثير. تثاقلت عيوننا من النعاس، وانسحبنا إلى غرفتنا لننام.

***

استيقظنا في الصباح الباكر مع قدوم أحد الروس الذين لا نعرفهم، يناهز الـ ٣٥ سنة، متوسط الطول، شعره أشقر مجعد، ملابسه عادية، لا يدل على أنه شخص مهم، يشرب الشاي بهدوء. طاهر وفاطمة يترجمون كلامه إلى الكردية. والرجل يتكلم بهدوء وبنفس الوقت يتفحصنا، ينظر في أعيننا مباشرة، ثم يمعن النظر فينا من الرأس إلى أخمص القدمين، يتابع كلامه، يسأل عن عددنا وكيف نحمي القائد. عندما رأى بأننا لا نعطي الجواب ولمح عدم الراحة في نظراتنا قال: "لا تقلقوا، نحن أفضل مَنْ نحميه. وضعنا نظاماً أمنياً مشدداً في محيط المنطقة، والذين رأيتموهم ما هم سوى حراس هذا البيت. لا يدخل هذا المكان أو هذه المنطقة أحد دون إذن منا، حتى اننا نصبنا مركز تنصت لتثبيت وتحديد أي مكالمة لاسلكية أو تلفونية مشكوكة بها في المنطقة. كونوا مرتاحين". بعدها أوضح بانه يريد مقابلة القائد. بعد اعلام القائد صعد إليه. سألت تايهان:

من هو هذا الرجل..؟

"موظف كبير في الاستخبارات، مسؤول عن أمن القائد".

لم يلبث كثيراً، نزل وغادر البيت لكن هذه لن تكون المقابلة الأولى والأخيرة مع هذا الرجل الغريب.

ناقشنا فيما بيننا على التأثيرات المحتملة للمكالمة التلفونية، قال تايهان:"بدأ القائد مرحلة تاريخية جديدة بهذه الحملة، لن يبقى بعد الآن أي شيء كالسابق".

عند الظهيرة جاء ماهر وذلك الرجل الغريب، كان يحمل الجرائد تحت إبطه. تناولت جريدة وبدأت القراءة؛ كتبت في الصفحة الأولى بحروف كبيرة وبمساحة ربع حجم الجريدة: أودينسوفا ODINSOVA . حروف أودينسوفا كانت تذكرني ببعض الاشياء... أجل وجدتها؛ في كتاب ترغينيف المشهور "الآباء والأبناء" يقول: "الناس يشبهون الغابة، كل له قلب وطحال، والفوارق البسيطة لا تظهره بانه متميز عن الآخرين، لذا لا

حاجة لتفحص الناس فردا فردا، فلا أحد يفحص أشجار الغابة واحدة واحدة". وبازاروف الذي لا يؤمن بالعشق يصبح عاشقا لإمراة أرستقراطية جميلة اسمها "أودينسوفا". تابعت قراءة ما كتب تحت حروف أودينسوفا :"عثر الـ MIT على آثار عبدالله أوج الآن في روسيا بناحية أودينسوفا التي تبعد عن موسكو بـ ٣٠ كم نحو الغرب، موجود في فيلا تحت المراقبة. وفور تثبيت وجود APO في روسيا قامت وزارة الخارجية باستدعاء السفير الروسي في انقرة وأبلغته بالمعلومات في موضوع APO ، لكن بيديف قال :" إن APO غير موجود لدينا". تغيرت سحنتي عند قراءة الجريدة. تذكرت المكالمة التلفونية في الليلة الماضية، تساءلت هل تم تحديد مكاننا..؟.

تعلقت عيناي بملامح وجه تايهان الذي كان يقرأ جريدة أخرى، وقال مذعوراً: "اعطني الجريدة لأنظر إليها أيضاً" ناولته أياها وأخذت الجريدة التي كانت أمامه، كتبت في الصفحة الأولى: "لقد تبين بوضوح ان عبدالله أوج الآن يسكن الفيلا الواقعة في ناحية أودينسوفا، وهي ناحية يسكنها ٥٠ الف نسمة، والمكان الذي يسكنه آبو يستخدم غالباً كبيت لضيوف الدولة الروسية". وأسفل منها بقليل كتب تصريح لمسعود يلماز:" قمنا بتثبيت مكان توأجد رأس الارهاب؛ فهو يسكن منذ أسبوع إحدى النواحي، وناهيكم عن إدارة التنظيم، فهو لا يستطيع حتى الاتصال تلفونياً مع مؤيديه". ورغم كل ذلك أصر المسؤولين الروس :"APO ليس لدينا".

ازداد توتري باضطراد، تناولت جريدة أخرى؛ نفس العنوان الرئيسي أدوينسوفا: "تم تثبيت وجود عبدالله أوج الآن في ناحية تدعى أدوينسوفا الواقعة خارج موسكو. حيث كان القياصرة الروس قديما يذهبون إلى هناك لصيد الأيائل في غابات أدوينسوفا الصنوبرية. هناك يعيش أوج الآن في بنأية فخمة في ناحية يوجد فيها بيت يلتسن الصيفي". وضعت الجريدة على الطاولة وصعدت بسرعة إلى الطابق الثاني. وأخذت أنظر للفيلات عبر الستارر الفضفاض.

أنظر لهذه الصدفة؛ هل سأتعرف على هذا المكان بهذا الشكل. إذا كان القياصرة الروس يأتوون إلى هذه الغابات التي نتمشى فيها، لصيد الأيائل.. أدوينسوفا...هل ياترى ان تلك المرأة التي أثرت في بازاروف

دق جرس الباب، الزوجين الروس فتحوا الباب، ذهب تايهان إلى الباب ورجع مباشرة، كنت أتابع قراءة كلكامش، عندها مر تايهان من جانبي، جاء مجيد وصعد إلى القائد. وكلكامش في بحث عن الخلود.

نهضت وأقفاً عندما نزل القائد ومجيد، الكتاب كان أمامي على الطاولة. جاء القائد نحو المكان الذي أنا فيه، وعندما لمح الكتاب بهذه الحالة، قال بصوت متعجب بعض الشيء: "هذا كتابي أليس كذلك..؟ ماذا يفعل هنا..؟"

أجبت بخجل:"قائدي أخذته من بين كتبكم لأقرأه، كنت سأعطيكم الخبر أما...".

قال مبتسماً:"حسناً...حسناً...اقرأ". بعدما صاحب مجيد حتى الباب صعد لغرفته.

جاء ماهر عند الظهيرة ومعه شخص متوسط الطول، أصلع الرأس، يضع نظارة، يلبس بدلة، لا أعرفه، صافح تايهان وروزرين وطاهر وفاطمة وكأنه يعرفهم. يتكلم بتركية تميل للآذرية، يعرف تايهان وطاهر وفاطمة في روسيا، وروزرين في الأكاديمية. كان هذا هو الرفيق هجار. قبل فترة قصيرة ذهب لإيالة زاغروس من الأكاديمية، لم يبقَ هناك سوى عدة أشهر، جاء إلى روسيا بطلب من التنظيم. قبل الآن كان يدير الفعاليات في هذه المنطقة. إنه من كرد أذربيجان، يعرف الكردية والتركية والروسية. بعد فترة نزل القائد، بعدما سلم على هجار، بدأوا بحديث إنفرادي. أوضح هجار البنية السياسية الروسية، وأوضح وضع الشعب وحالته بعدما انهارت الاشتراكية المشيدة...

القائد: "كيف، هل ستتخذ روسيا موقفاً يتوافق مع تاريخها..؟ هل هم مبدأيين في سياساتهم..؟ هل يحتمل بقاءنا هنا لفترة طويلة..؟" بعد طرح هذه الاسئلة خرج مع هجار للحديقة.

****

بعد فترة ذهب ماهر مع هجار مثلما جاؤوا. روزرين وطاهر يحضرون أنفسهما للخروج من أجل الاتصال بالهاتف. خروج روزرين كل يوم من

غير المؤمن بالعشق قد عاشت هنا فعلاً وجعلته يعشقها..؟ ربما انه اسمها.

بدأ هذا الصباح بحيوية، استمر بنفس الشكل. جاء الرجل العجيب ومعه عدد من الأشخاص، وفي يده عدة ملفات ويفهم من حركات يديه بأنه مستعجل. بدون توقف صعد مع ماهر للطابق الثاني.

- نعيش ساعات عجيبة، سريعة...
- مكالمة القائد لـ ... MED TV
- زيارات الرجل الغريب في هذا اليوم...
- عناوين الجرائد....
- غابات الصنوبر....

في الطابق الأول يسود الصمت، قرأنا جميعنا الجرائد، ساد الوجوه، المجهول، الخوف، القلق، الذهول... ماذا سيحصل لو كانوا حقاً قد حددوا المكان والموقع..؟ هل سنستمر في البقاء هنا..؟.... دارت الكثير من الأسئلة في العقول. والأسئلة لا تستطيع أبداً أن توضح المجهول.. إنما تتوضح الأمور وتزول المجاهيل عندما تتحول إلى وقائع. هذا الوضع يخلق نفسية قلقة. لكن مع الأسف لا نستطيع القيام بأي شيء، فالأمور تتطور خارج إرادتنا، وسننتظر نتائج التطورات، ولا بد أن ننتظر ما سيحدث منذ الآن.

نزل زوار القائد بعد فترة قصيرة وبدون انتظار غادروا المكان. بعد توديع ماهر للرجل الغريب ورجاله عاد نحونا بدأ التحدث قائلاً:"أنتم أيضاً قرأتم الجرائد، تمكنت أمريكا والموساد من تثبيت الموقع عن بعد من المكالمة التي أجراها القائد في الليلة الماضية. صوت القائد مسجل في آلة خاصة، لهذا السبب تم تثبيت الموقع بواسطة الأقمار الصناعية. وهكذا فأي اتصال هاتفي يجريه القائد يؤدي إلى تحديد الموقع. وفي الملفات التي يحملها عناصر الاستخبارات، نصوص لخطاب القائد بالأمس ومترجم لعدة لغات. وحتى الآن كانت تركيا تصر بأن القائد موجود هنا إلا إن روسيا أنكرت ذلك، وسيتأزم الموقف من بعد الوضع الأخير. يتطلب ترك هذا البيت مباشرة لأسباب أمنية. فإعتباراً من اليوم سيتوافد إلى هنا المراسلون وعاملي التلفزيون من كل أنحاء العالم. اليوم وعند مجيئنا إلى

تأخر الوقت كثيراً، كنت جالساً مع تايهان في غرفتنا نستمع لـ "غيتارو"، مخفضين الصوت بحيث لا يصل إلى الطابق الأعلى. التفت إلى تايهان وسألته:"هل ستتحدث مع القائد..؟" قال لا أعرف فحتى الآن لا أجد في الحديث شيء من الآنصاف والعدل ضمن الظروف التي يعيشها القائد".

استمعنا لغيتارو حتى تثاقلت جفوننا من النعاس وهكذا نمنا.

****

في هذا الصباح خرج القائد مبكراً للحديقة. الثلوج التي كانت تهطل بالأمس توقفت، تاركة مكانها للبرد الذي يجمد الدماء في عروق الإنسان حتى النخاع. كان يتمشى وقد سحب قبعته حتى أذنيه وزرر معطفه. بعد عدة جولات في الحديقة صعدنا إلى مكان كرة الطاولة، ومثل كل مرة خضنا المباراة والنتيجة نفسها ٢-١ بعد كسبه، قذف المضرب على الطاولة بسرور وفرح طفولي، ثم تمشى بين بداية الممر والنافذة الكبيرة بخطوات ثقيلة، توقف لحظة وقال: "هل قرأتم الجرائد التي أتت".

تايهان: "قائدي قرأنا أكثريتها".

- الشعب ملأ العالم ضجيجاً بالمسيرات، السجون تقاوم، ولا جواب من الكريلا..."

آخر كلماته كانت متقطعة، قالها ببطء: " ....لا يوجد...جواب ...من الكريلا..!". تابع كلامه: "وذلك الشخص الذي خطف الطائرة هو الآخر مثلكم جميعاً لا يعمل عقله؛ ما دمت تخطف الطائرة، وما دمت مستعداً للموت، فليكن ذا معنى ونتيجة ولتكن العملية ناجحة. إن ماتعيشونه تراجيدي، تموتون ولكن لا تصبحون أصحاب حياة ذات معنى. هذا ما يجب حله. فالغريب أنكم تموتون ولكنكم لا تستطيعون الحياة..!".

صعد القائد لغرفته. في الليلة السابقة أخذت كتاب القائد (ملحمة كلكامش) لقراءته في أوقات الفراغ. كنت سأخبر القائد بأخذي للكتاب ولكن لم أجد الوقت المناسب. لابد أنه سيغضب إن علم بذلك دون أن أخبره. ففي الوقت الذي خرج القائد من الشرق الأوسط، كان يذكر في تحليلاته كلكامش كثيراً، إنها مهمة لفهم تحليلاته...

هنا صادفنا في الطريق الكثير منهم. ومهما يكن فجميع الجرائد تعرف عنوان البيت الذي نتوأجد فيه الآن ولهذا يجب إخراج القائد مساءً من هذا البيت وأخذه لمكان آخر. سيبقى الآن مؤقتا في بيت (ميترافانوف) وهو من حزب جيرنيوفسكي وعضو ببرلمان دوما ورئيس لجنة الجيوبوليتيكا في الدوما. يبحثون عن بيت على شكل مزرعة، لـ يبقى القائد في سرية وبعيداً عن الأنظار. ولحين العثور على بيت بهذا الشكل سيبقى القائد في بيت ميترافانوف، وهو أيضاً صديق. في المساء سيأتون لأخذ القائد. أنتم أيضاً ستتابعون بقاءكم عند القائد بوضعيتكم الحالية وبهذا المعنى ستقومون بتحضيراتكم". قال ذلك وذهب، وما تبقى لنا هو ان نجهز أنفسنا حسب الأوضاع التي ستتطور.

ليس لنا ما نقوم به من أجل الرحيل، سنحمل معاطفنا وسنخرج في الوقت المناسب. أذهاننا مليء بالمجاهيل والقلق، مشاعرنا غير مستقرة. فما عشناه في هذه الفترة من ذهول واضطراب تحول إلى أمور عادية. فان لم تكن الأحاسيس مستعدة لمواجهة تأثيرات الواقع الخارجي ستظهر صعوبات شديدة في مقاومتها .

تقابلنا قبل أيام مع القائد في ساحة لا نعرف موقعها. في نفس اليوم خرجنا من ذلك المكان وأتينا إلى هذا البيت الذي كنا نجهل مكانه حتى هذا اليوم... واليوم سنذهب إلى بيت آخر... لا نعرف مكانه بل نعرف صاحبه.

تايهان متضايق مضطرب وقلق يتمشى في الغرفة ذهابا وإياباً. سرت نحوه. قال تايهان: "في الحقيقة على المرء ان ينصت إلى صوت قلبه بامعان، ويتطلب فهمه، أو عليه ان يمهد السبيل لنمو مشاعره وادراك ما يعيشه في هذه الفترة التاريخية، وفهم القائد ولو قليلاً والارتباط معه حتى النهاية، لا بد من تحضير انفسنا لكل المفاجأت. فمن الصعب توقع ما ينتظرنا. أعرف إنك أنت أيضاً تأثرت كثيرا بالأحداث الأخيرة، واندهشت لها. لقد أصبحت تلك الأمور جزءاً منا..! ولن تتركنا حتى انتهاء هذه المهمة".

****

لطافته، فهو قصير القامة وأكثر سمنة نسبة إلى جيرينوفسكي، تتدلى وجنتاه من السمنة. بدون توقف صعد الأربعة إلى مكان تواجد القائد. سيقوم بريي بالترجمة ثانية، لم نكن نميز حديثهم من الطابق الأول.

أخذت فاطمة الشاي وعندما رجعت سألناها: "ماذا يناقشون". ردت:"لم أبقى حتى أفهم جوهر المحادثة". بعد فترة نزلوا الدرج الخشبي. الضحكات ترتسم على الوجوه ثانية. على الفور غادر ميترافانوف المكان. دخل ماهر ورستم الصالون، ولم يتحدث معنا ثانية، كان يسأل عدة أسئلة لبرويي ويتلقى الجواب. التفت إلينا وقال:"في هذه الأيام سيصوت برلمان الدوما على طلب القائد للجوء السياسي. ربما سيتم قبول هذا الطلب. الفعاليات الدبلوماسية إيجابية. هنا بالذات إحدى الأماكن الأساسية لتسيير الأنشطة السياسية في الحزب، لكن الذين يديرون الفعاليات الخارجية للحزب قلائل جداً ، فقط أنا وكاني..!" تابع كلامه بنظرات متعالية؛ "والحاصل فإننا سنزيد من عددكم، دجلة وساكنة جاءتا من أرمينيا، سنجلبهما إلى هنا، عدا ذلك سيأتي رفيق من أوروبا، لقد طلبنا هجار، سيأتي قريباً، يمكن أن يبقى هنا ومن الممكن أنكم ستشكلون لب الأكاديمية". بقيا قليلاً ثم ذهب مع برويي سوية.

جلب ماهر معه الجرائد وكتابات الزوايا المرسلة بالفاكس. وفي جيمع الجرائد تقريباً ورد خبر:"خطف طائرة من أجل عبدالله أوج الآن"، "بخداع قرصان الجو هبطت الطائرة في أنقرة تحت اسم بلغاريا، وتم قتل القرصان عن طريق حملة تمشيطية قامت بها مجموعة خاصة بعد هبوطها في أنقرة". بعد إلقاء نظرة على الجرائد، بعثناها إلى القائد.

جاء طاهر في المساء، قال بهيجان "راقبونا أينما ذهبنا، كانوا خلفنا دائماً".أما روزرين فكانت تهز رأسها دلالة الموافقة على ما يقول. رد تايهان مبتسماً: "هذا ليس بالأمر الجديد. كانوا يتبعونكم قبل الآن أيضاً، وكل حركة نقوم بها في هذا البيت تحت مراقبتهم، لذلك لا داع للقلق".

تدخلت روزرين:"أيها الرفاق هناك أخبار جيدة هذه المرة، يتم الآن تهيئة مكان للقائد، والآن يستطيع القائد الخروج إلى اليونان متى ما شاء. الأصدقاء سيأتون لموسكو بعد عدة أيام، عندها سنتكلم معهم حول التفاصيل وظروف بقاء القائد هناك، إن ذهب إلى اليونان".

مبارياتنا بكرة الطاولة أصبحت مستمرة. في الشرق الأوسط كان يلعب كرة الطائرة وكرة القدم، لكن الامكانات قليلة هنا. كنا مجبرين على الاكتفاء بكرة الطاولة. بدأنا المباراة التي تسير دائماً بتقارب للنقاط. والنقاط في هذا اليوم أيضاً متقاربة جداً. لكن في الجولة الأخيرة يكون القائد هو الرابح. وبالامكان مشاهدة حركاته الطفولية ونشوة نصر العظام في لحظة واحدة. في فترات تقارب النقاط كان يلجأ إلى حيّل صغيرة وهو يضحك. عندما كنت أُناوله الكرات التي تقع على الأرض وقبل أن أصل إلى مكاني كان يرسل الكرة للساحة الفارغة. ابتساماته كانت تعير من سماته. بعد المباراة كان يدخل الحمام البخاري ونحن نأتي له بالملابس. قبل الآن سخن طاهر الحمام، لأنه يفهم من التقنية قليلاً كنا ننتظر عندما يستحم القائد في غرفة الآلات الرياضية. دخوله للحمام البخاري بشكل مستمر جيد لصحته، لأنه كان يزداد وزناً بسب قلة الحركة التي يفرضها هذا المحيط الضيق، وبهذه الطريقة كان يتخلص من الوزن الزائد. عندما خرجنا سحب نفساً عميقاً وقال: "كان ساخناً جداً، لاقيت الصعوبة في التنفس". وتحرك نحو غرفته. ونحن ذهبنا إلى الصالون... روزرين كانت جالسة هناك. قالت لطاهر:" إن كنت مستعداً فلنخرج لكي نتصل بالهاتف. ونشتري حاجات المطبخ".

طاهر:" حسناً لنذهب". ركبا الجيب وغادرا البيت. ستتصل روزرين مرة أخرى مع اليونان والأصدقاء.

بعد الظهيرة كنت أشاهد الثلوج من خلال ستار النافذة، إنه يهطل كالقطن. أوراق الشجر المصفرة المتبقية على الأغصان ترسل من فوق الثلج لوناً أصفراً، ثم لا تلبث أن تنتهي بين بياض الثلج...

أقتربت عدة سيارات من الباب الخشبي للحديقة، فتحت أبواقها. خرج أحد الزوجين الساكنين في غرفة المدخل كي يفتح الباب. دخلت سيارة من تلك السيارات السوداء صاحبة الأرقام الخاصة. مازالت منبهاتها الزرقاء تعمل، وخلفها عبرت سيارة ماهر.

نزل من السيارة السوداء جيرنيوفسكي وميترافانوف ومن الجيب نزل ماهر وبرويي. دخلوا المنزل مسرعين بسبب الثلج. ألقى جيرنيوفسكي التحية بالتركية ويداه في جيبه. عندما صافحنا ميترافانوف كان يبالغ في

خيم الظلام، استمر الانتظار،عندما سمعنا صوت محركات السيارت التي وصلت إلى باب الحديقة، تحرك الحراس الروس. كانت المنبهات الضوئية للسيارت تضيء المكان. بعد دخولها الحديقة أطفأوا المنبهات، أما محركات السيارات فكانت لا تزال تعمل وهي واقفة تنتظر. لم أتمكن من معرفة عدد السيارات. خرج تايهان بينما انتظرنا نحن هؤلاء القادمين في المدخل. دخلوا جميعاً بعد برهة، يتوسطهم رجل سمين في الأربعينيات من عمره، شعره الأسود مسترسل على جبهته، يرتدي نظارات غليظة بقدر قعر الكأس، ويرتدي جاكيتاً بنياً على بدلته، يصاحبه رجل أشقر، طويل القامة، يضع نظارة. بعد مصافحتنا صعدوا إلى حيث القائد.

نظرت إلى الخارج عبر النافذة؛ رجال متشابهون يقفون مع الحراس. الحديقة مزدحمة بالسيارات، جاؤوا لأخذنا وبعد فترة قصيرة نزل القائد برفقة الرجال، تعقبهم فاطمة التي قامت هي هذه المرة بالترجمة من الروسية إلى الكردية. حأول القائد أن يبتسم، ولكن تصرفاته كانت تتحدث أكثر، أثناء خروجه قال:"هيا لنذهب". خرجنا خلفه. قال تايهان:"ليستقل كل منكم سيارة مختلفة".

استقل القائد سيار سوداء ذات رقم خاص، وروزرين بجانبه، والرجلان اللذان تكلما مع القائد استقلا نفس السيارة. أما تايهان فركب السيارة التي تسبقها. جميعها سيارات سوداء مثل سواد الليل. طاهر وفاطمة ركبوا سيارة جيرنيوفسكي الجيب، وأنا ركبت سيارة سوداء أخرى. بدأت القافلة بالحركة تحت جنح الظلام؛ في المقدمة السيارة التي يستقلها تايهان، تليها سيارة القائد ومن بعدها السيارة التي ركبتها ومن ثم سيارة الجيب. وخارج الباب انضمت إلينا عدة سيارات أخرى كانت تنتظرنا. تحرك موكبنا على شكل قافلة، لا أعرف عددها. خرجنا من المنطقة السكنية ودخلنا الطريق الاسفلتي، تاركين المنطقة التي تعرفت على اسمها من خلال الجرائد، إلى منطقة لا نعرف عنها أي شيء...!

لم يكن من أحد في السيارة التي استقلها سوى السائق، اجلس على الكرسي المجاور له. الرجل مضطرب، يحوّل ناظريه نحوي بين الحين

والحين، وأنا أتمعن فيه حيناً، كانت تبدو عليه علامات الانزعاج من نظراتي.
كانت السيارات تذوب مسرعة في ظلمة الليل، أضواء المنبهات تنير الطريق الخالي. جميع سياراتنا كانت تحتل الجانب الأيسر من الطريق، حاولت معرفة عدد السيارات التي تتحرك معنا، كانت ثمانية على أقل تقدير. في البرد القارس وتحت جنح الظلام نراقب الطريق الاسفلتي الذي لا نعرف إلى أين سيأخذنا.

***

الثورة الروسية لم تتجاوز الاطر الاقطاعية والرأسمالية؛ فرأسمالية الدولة لن تولد الاشتراكية ولذلك فالليبرالية المعاصرة لا تستطيع الصمود أمام الرأسمالية. روسيا تعيش هذا النموذج، تعيش مرحلة متأزمة تعاني فيها من تفشي الانحطاط الخلقي والانحلال الداخلي بعد انهيار الاشتراكية المشيدة....
تعرفي عليها ورؤيتها مهد السبيل كي أرى بوضوح إحدى وجوه القرن العشرين.
القرن العشرين يشبَّه كثيرا قرن الخيانات...

-"قائدي، شخصياتنا أصبحت أرضية موضوعية للمؤامرات المدبرة حتى اليوم. المؤا...."
قطع حديثي بغضب.
- لماذا لا تتغيرون إذاً..؟ إلى متى..؟ ماذا يتطلب أن أفعله أكثر..؟"
- القائد يؤدي أكثر من المطلوب، لكن المشكلة تكمن في عدم تطبيقنا لها.
- "لماذا لا تتغيرون إذاً..؟ هل لكم طريق آخر تتبعونه أم لديكم بديل..؟ ألهذا السبب..؟"
- ليس لدينا طريق نذهب إليه ولا بديل. لا يوجد طريق غير PKK، قائدي..
"طبعاً لن تذهبوا للحياة القديمة، ليس فيها ما تقدمها لكم وأنتم ترون وضع الذين يذهبون. يستخدمونه ثم يرمونه في زاوية".

*****

تايهان وطاهر كأنا في الطابق العلوي للبيت الثاني، يترددون عليه للتدخين بدل البيت الذي نسكنه. وعندما كان القائد يتمشى، فجأة دخل ذلك البيت، قلتها في داخلي:" يا الهي..! أتمنى أن يكونوا قد أنهوا التدخين. هل تراهم أحسوا بصعودنا...؟" وصل القائد لنهاية الدرج. تايهان وطاهر يقفان جنباً إلى جنب في وضعية الاستعداد والدخان يملأ الأجواء والنفاضات بجانبهم. في بيت أودينسوفا كان القائد يشم رائحة الدخان من الطابق الثاني، وينزل على أثرها ليقول بغضب:"من الذي يدخن..؟" إنه حساس جداً تجاه السيجارة. والآن كيف ستكون ردود أفعاله يا ترى...!.
امتقع لون تايهان وطاهر. طاهر كان ينظر إلى طبقة الدخان التي تعلو رأسه. قال القائد بغضب:"ماهذا..! من الذي دخن هنا..؟" قالها بحدة وهو يرفع صوته. تايهان لم ينبس ببنت شفة. تكلم طاهر مباشرة. قال بالكردية: "قائدي، الحراس الروس هم الذين دخنوا". كان طاهر يجد الحجج لينقذ نفسه من مثل هذه الموأقف. لم يصدق القائد كلامه إلا أنه لم يرد الإطالة. وبينما لا يزال تايهان صامتاً، خجولاً في وقفته ومسحوقاً. اتجه القائد نحو كرة الطاولة وقال:" هيا.. اذهب لمواجهتي".

بيت ميترافانوف

تفوه السائق ذو الشعر الأحمر ببعض الكلمات وهو يقدم لي سيجارة. حاولت إفهامه بالإشارات بأنني لا ادخن، لم تكن لدي الرغبة في الحديث. كنت انظر عبر الظلام وأفكر بما قد ينتظرنا... أتعقب سيارة القائد وأنشغل بألا تغيب عن عيناي. وعندما كانت تقترب سيارتنا من السيارة الأمامية كنت ألمح القائد بفضل المنبهات الضوئية...

الطريق كان خالياً والسيارات تسير بسرعة على نفس الوتيرة خلف السيارة الأولى. مضى ما يقارب الساعة ونحن في الطريق. خففت السيارة الأولى سرعتها وخرجت عن الطريق العام إلى طريق آخر، وتبعتها السيارات الأخرى. شاهدت بعض البيوت التي انعكست اضواء السيارات عليها، إنها في المدينة. نسبة إلى أدوينسوفا هي تشبه الاحياء المحيطة بالمدن أو التي تجاورها، مؤلفة من عدة بيوت مستقلة منتشرة. توقفت السيارة الأولى أمام باب خشبي لحديقة إحدى المنازل. جاء شخص من داخل الحديقة وفتح الباب، دخلت السيارة الأولى ثم سيارة القائد وبعدها السيارة التي كنا نستقلها...

نزل القائد مع من برفقته من السيارة ومن بعدهم نحن. وفي جنح الظلام لمحت بيتين متشابهين ذوي طابقين بأسقف مائلة. كانت السيارات قد توقفت بين البيتين تماماً. توجهنا نحو البيت الواقع على ليمين، دخل القائد مع الرجلين الذين يرافقانه. بعد المدخل ظهر ممر ضيق وطويل، ينتهي بدرج خشبي أصفر اللون يقع في الجهة اليمنى منه. صعدنا أولا إلى الطابق الثاني، وقع نظري في بداية الدرج على كتابة بالطباشير وبخط اليد على الحائط، كتبت بالروسية بمناسبة ذكرى سنوية "نحو أعوام سعيدة" بتوقيع بريجينيف، وعلى مقربة منه صورة كبيرة لبريجينيف. إذا أمضى رئيس الاتحاد السوفيتي إحدى حفلات رأس السنة في هذا البيت. عندما صعدنا الدرج رأينا لوحة للنبي عيسى مصلوبا موضوعة على الحائط، إضافة إلى العديد من اللوحات الزيتية المعلقة هنا وهناك والمنتشرة على جداريّ ممر الطابق الثاني، ولوحات فنية مرسومة بعشرات الألوان المتداخلة. وعلى يمين الممر غرفتين، وضعت في

للحرب". عندما تحدث كانت الفترة تشبه هذه الأيام العصيبة. وموضوع الحوار كان يدور حول "المرأة"، إذ قال آنذاك "ربما أن نقاشنا تتركز حول موضوع المرأة، قد يستغرب البعض من تداولي لهذا الموضوع في هذه الأيام العصيبة، لكننا نستطيع وفي أية ظرف كان أن نبحث المواضيع التي تخصنا". إنني لا أقول بأن تشغل القائد الآن وهناك مسائل حيأتية وضرورية، لكنه رغم كل شيء سيستمع إلى المواضيع التي ستطرحها، وربما تكون ذات فائدة لحل المشاكل التنظيمية المستعصية هنا".

بعدما هز تايهان رأسه بالإيجاب، قال "ولكن ألن نكون أيضاً غير عادلين بحق القائد". اكتفيت بالنظر إليه ولم أتكلم. باستيقاظ الرفاق الآخرين قمنا بتناول الفطور سوية.

نزل القائد وهو يلبس معطفاً خاكياً وقد أغلق أزرار المعطف وفي يده قبعته الصوفية.

ــ "هل الجو بارد..؟ هطل الثلج. هل يستطيع الإنسان المشي في الحديقة..؟"

تايهان: ـ "قائدي، بهطول الثلج خفت البرودة قليلاً "بعد هذه الكلمات خرجنا معاً ً ، كان القائد يقضي معظم ساعات اليوم في غرفته، ويخرج عدة مرات للحديقة للترويح عن نفسه. ربما كانت المرة الأولى وعلى مدى العشرين سنة ينحصر في مكان ضيق كهذا، حتى أنه لا يوجد مكان للرياضة أيضاً، كل ما هنالك هو كرة الطاولة والبلياردو.

كان يتفحص الثلج الذي كان يعلو الأرض بضع سنتمترات، يدهسها، يصنع كرات ثلجية في يده ويقذفها إلى البعيد. اثناء مشيه على الثلج كان يقف ويضغط الثلج بحركات ثقيلة، يريد الاستماع لصوت الثلج المتعالي من تحت قدميه... نظر إليّ وقال: "تعال هنا!". اتجهت نحوه بسرعة. الآن نخطو الحديقة جنباً لجنب. أوافق خطواتي حسب خطوات القائد، بعد المشي قليلاً رفع عينيه عن الثلج وركز نظرات ثاقبة في عيني. من الصعب إعطاء الجواب مع هذه النظرات، تهربت من النظر إليه."العيون تظهر قوته الروحية".

ـ "أفكر الآن حول نظرية؛ إنكم امتداد المؤامرة في داخلنا".

الصغيرة منها كرسياً وطاولة وتلفزيونا ومنضدة. سقف الغرفة بشكل رقم /٨/. أما الكبير؛ فهي غرفة نوم تضم سريراً مزدوجاً وخزانة ملابس ولها نافذة كبيرة تطل على الحديقة. سيبقى القائد في هذه الغرفة. سيستعمل الغرفة الصغيرة كغرفة عمل. أما الغرفة المقابلة فهي غرفة صغيرة تحتوي على سريرين. ستبقى فيها روزرين وفاطمة.

لم يتحدث القائد أثناء تجواله بين الغرف بشيء بل تفحص بنظراته فقط. بعد التجول في هذا الطابق نزلنا للطابق الأول، حينها استأذن الشخصان بلطافة من القائد، وعند مغادرتهم قال أحدهم:خذوا راحتكم، واشعروا وكأنكم في بيتكم".

كنا نتابع التجول في الطابق الأول؛ حمام في الجانب الأيمن لممر هذا الطابق، وفي نهايته غرفة متوسطة الحجم، علقت على جدرانه لوحات تشبه الموجودة في الطابق الثاني. لوحات غريبة حقاً؛ فيها عشرات الالوان وكأنها وضعت فوقها بشكل عشوائي. بمقدور المرء رؤية هذه اللوحات على جدران كل غرفة. على إحدى الجدران رأيت صورة صغيرة، كانت لذلك الرجل صاحب النظارات الذي جلبنا إلى هنا، وعلى مقربة منها توجد صورة أخرى.

صورة متوسطة الأبعاد موضوعة في اطار، كنت أعرفه... انه جيرنيوفسكي وفي يده كأس من العصير. وإلى جانبها صورة أخرى للرجل الثاني الذي رافقنا إلى هنا، وفي اللوحة جيرنيوفسكي أيضاً. نظر القائد لهذه الصورة بطرف عينه. في هذه الغرفة طاولة طعام مع الكراسي بالإضافة إلى تلفزيون ومسجلة، وفي نهايته باب يؤدي إلى مطبخ صغير ذات خزائن ملونة. هناك غرفة أخرى كبيرة تقع على الجانب الأيسر من نهاية الصالون الذي سيكون مركز البيت، سنبقى أنا وتايهان وطاهر في هذه الغرفة المشرفة على الجهة الخلفية للحديقة وسنستخدمه كمركز. اللوحات موجودة هنا أيضاً.

عندما رجعنا من هذه الغرفة قابلنا إمراة مسنة ورجل بنفس العمر يرتدي بذة عسكرية رسمية. وبعد مصافحتهما للقائد قال الرجل: "نحن أيضاً سنبقى في هذا المنزل، ان لزمكم شيء أو حصلت أية مشكلة تستطيعون اخبارنا، سنكون باستمرار في هذه الغرفة الصغيرة المجاورة للمدخل".

وقال: "أُلغي ذلك المخطط؛ السفر لخارج روسيا بجواز سفر القائد أُلغي". ثم ذهب بعد ذلك، عندها قال تايهان: "إلغاء المخطط أفضل وهذا يعني بأنني سأبقى فترة أطول عند القائد، إلى حين ذهابي إلى المؤتمر". تبدلت ملامحه وأرتسمت ابتسامة واضحة على وجهه الحزين. بتأخر الوقت انسحبت إلى غرفتي لأنام، أغلقت عيناي وأنا استمع لبيتهوفن.

****

استيقظت قبل الجميع، رفعت ستار النافذة ونظرت إلى الحديقة، كان البياض الساطع يغطي الأرض؛ فها هو البرد القارس يترك مكانه للثلج الأول. استيقظ تايهان أيضاً، وذهبنا سوية إلى المطبخ لشرب كأس من الشاي الساخن. سرح تايهان بخياله مع البخار المتصاعد من الفنجان، وعندما صحى قال: "هل تعرف بأنني أفكر بأمر وأريد معرفة رأيك؛ ربما أن مجيئك إلى هنا منذ فترة ٧-٨ أشهر ليست بفترة طويلة، لكنك تفهم المشاكل التنظيمية لروسيا، وأعرف معاناتك في هذا الوضع؛ المفاهيم التنظيمية لروسيا ونمط الحياة، تشكيل الكوادر، مقاييسها المنافية لحياة الحزب وأخلاقياتها، وماهر موجود هنا منذ نشوء التنظيم وقد خلق نظاماً حسب ذاته وهو متجذر. قبل الآن كتبت تقريراً توضيحياً وشرحت فيه اسلوب التنظيم المتواجد هنا. وعلى ضوء هذا التقرير أجرى القائد تحليلات بشأن روسيا في الأكاديمية. الآن أيضاً أفكر بالحديث مع القائد حول وضع ماهر وشكل التنظيم الذي أوجده. أنت تعرف أيضاً أن المؤامرة التي استهدفت القائد مستمرة، وليس من المعلوم ما سيحدث في الغد. القائد بدوره مشغول في هذه الأيام الطوفانية بمشاكل كالجبال، أفلا يكون من الجور أن أشغل القائد بمشاكل روسيا أيضاً حسب رأيك..؟ ماذا أفعل..؟ هل أصرح للقائد عن هذه المشاكل جميعاً..؟

تايهان ينظر إليَّ بعيون تلتمس الجواب. يجب أن أقول شيئاً. بدأت القول: هل تتذكر ان القائد تكلم في إحدى البرامج قبل أن نأتِ بفترة قصيرة. في تلك الفترة كانت تركيا قد حشدت قواتها العسكرية على الحدود السورية، وتضغط عليها لإخراج القائد، وفي كل يوم كانت الجنرالات والسياسيون يصرحون بقولهم: "إما سيخرج عبدالله أوج الآن من سوريا أو يكون سبباً

قالا ذلك وانصرفا إلى غرفتهما الصغيرة التي تحتوي على الهاتف الوحيد الموجود في البيت. هذه المرة يخلو البيت من الحراس. بعد ان أنهى القائد جولته في البيت جلس على الكرسي المحاذي لطاولة الطعام ونظر إلى تلك الصور واللوحات المعلقة على الجدران، ثم تعلقت عيناه بنقطة معينة، وكأنه انتقل إلى البعيد البعيد. ثم قال بصوت غير واضح: "سنبقى في هذا البيت بشكل سري..! ولن يعرف أحد مكاننا، لا هاتف ولا أية علاقات. هكذا يتوجب ولمدة ما".

ساد الصمت للحظة. تابع تفحص اللوحات قاطباً حاجبيه، قال وقد ركز نظره في نقطة معينة: "يجب أن نكون أصحاب حياة شبيهة بتلك الشجرة النابتة في أرض قاحلة وصخور صلدة. من الآن فصاعداً سأسير واضعاً أفكاري، جهودي الثورية وكل ما أملك في خدمة من يدرك قيمتها. لن أكون كالسابق أبداً...!. في الحقيقة كان علي أن أقوم بهذا الانفتاح في أعوام٩١ - ٩٢ . ان توفر لي الوقت في المستقبل سأقدم نقدي الذاتي وبشكل مكثف في هذا الاطار. إن جميع محاولاتي تستند إلى جذوري التاريخية؛ الحياة وفق جذور التاريخ جميلة بمرارتها وسعادتها".

هب من الكرسي واقفاً، وقال مبتسماً:" لدي ما أخططه، سيندهش الجميع كثيراً..!" وبعدها. غادر المكان إلى غرفته.

لم تعد عواطفنا المشتتة تتحمل هذه اللحظات الصعبة، فحالتنا النفسية مضطربة وقلقة. قال تايهان:" لماذا وجد القائد بان تلك الخطوة كان ينبغي إلقاؤها في اعوام ٩١ـ ٩٢ ..؟. لماذا سيقدم نقده الذاتي في المستقبل. حسناً، ما هي تلك الخطة..؟.

قلت مجاوباً: "لا أعرف؛ فتلك السنوات هي المرحلة تصاعدت فيها وتيرة الانتفاضات الشعبية وحرب الكريلا لتصل إلى على مستوى لها، كما وإن نسبة الملتحقين بصفوف الحزب كانت كبيرة جداً مقارنة مع الأعوام الأخرى. والخروج من الوطن في مرحلة كهذه...؟

استمع تايهان إلى كلماتي بدقة وقال:" يجب ان نفكر أكثر لندرك سبب وجود القائد هنا. فعندما يتكلم القائد يجب الاستماع إليه جيداً لنستطيع ربطها بالمستقبل؛ لربما سيتحدث فيما بعد حول ما قاله اليوم. ان لم يكن أحدنا موجوداً صدفة فعلى الآخر ان يخبره عن فحواه. أعتقد إن مغزى

بأنهم فرغوا من العمل. كان يبتسم وعلى ملامحه الأمل والابتهاج. تناول الرجل الغريب جواز السفر وقدمها للقائد الذي أخذ يقلب صفحاتها بنفس التعابير، إنه جواز سفر "مواطن روسي" في الصفحة الأولى تظهر الصورة التي التقطت قبل قليل، وكتب تحت الصورة بأحرف روسية كتابة، ربما تكون الاسم ولكنني لم أفهمها. ساد جو دبلوماسي يميزه الضحكات المصطنعة؛ قال الرجل الغريب مبتسماً ببرودة جامدة: "بهذا الجواز تستطيع الذهاب لأي مكان في العالم متى ما شئت"، هل كانت تلك ضمانة عرضت على القائد.. أم...؟ سنرى فيما بعد بأنها لم تكن كذلك.

حضر ماهر وجلب معه تقييمات ليعرضها على القائد، منها ما قدمت من أوروبا وأخرى من الوطن. بعدما خرج القائد من الشرق الأوسط تمرد الشعب الكردي والكثير من الأجانب في جميع أنحاء العالم، وبهذا الصدد تصرح الجرائد بأنهم يقومون بمسيرات مستمرة والسجون بدأت بالاضراب عن الطعام منذ فترة طويلة، كلها تحت شعار "لن تحجبوا شمسنا"، الاطفال والشيوخ والنساء يحرقون أنفسهم. يظهرون ارتباطهم بالشمس بحرق أجسادهم، ربما التاريخ سيصبح شاهداً وللمرة الأولى على هذه العمليات وبشكل متتالٍ، واضعين حلقة نار حول الشمس.

هذه الحوادث تشغل كافةً وسائل الاعلام والتقييمات التي جاءت اليوم تتحدث عن عشرات العمليات.

خرج القائد إلى الحديقة بعد قراءة هذه الأخبار. حركات وجهه ساكنة، يتمشى وينظر للارض بنظرات ثاقبة...دخل البيت بعد فترة قصيرة بسبب البرد.

تايهان مازال حزيناً لافتراقه عن القائد، وأنا حزين لافتراقي عن تايهان، إلا أن الكلام كان يزيد الحزن، لهذا لم نكن نتحدث.

جاءنا ماهر في المساء مع برويي، والشيء الذي لفت نظري في جميع زيارات ماهر، هو أنه لم يكن يتكلم معنا في أغلب المرات، وإذا لم يكن له حاجة للتكلم معي، فلماذا لا يتكلم مع تايهان..؟ لقد قام تايهان في فترة بإدارة روسيا كلها، والآن يعمل ضمن اللجنة الإدارية لتنظيم روسيا، رغم ذلك فإنه لا يشأوره ولا يناقشه في أي شيء إلا عند الضرورة، لا يدقق في تصرفاته، يسيطر عليه اسلوب تحكمي تسلطي. التفت إلى تايهان

خروج القائد يكمن في حديثه هذا". ثم نهض من مكانه وبدأ يتفرج على الغرفة التي سنبقى فيها سوية.

سألت تايهان: "في الغرفة الثانية صورة للشخصان اللذان جلبأنا إلى هنا مع جيرنيوفسكي، من هما..؟".

ـ إنه ميترافانوف والثاني برلماني في نفس الحزب.

ـ هل تقصد إن من جلبنا إلى هذا المكان هو ميترافانوف..؟.

ـ أجل هذا بيته، إنه من حزب جيرنيوفسكي، وما عدا ذلك فهو رئيس لجنة" الجغرافية السياسية" لمجلس الدوما، لقد التقى مع القائد في الشرق الأوسط قبل الآن وهو أحد الذين وجهوا إليه الدعوة للقدوم إلى هنا. ميترافانوف لا يستعمل هذا البيت كثيراً، يبقى هنا أوقات العطل فقط.

ـ حسناً والمرأة مع الرجل الذي يلبس البزة العسكرية..؟

هؤلاء أقرباء ميترافانوف يبقون هنا عادة للمحافظة على البيت. وأعتقد إن الرجل صاحب البزة الرسمية والذي لا أعرف رتبته، موظف متوسط الدرجة في الدولة". بهذا الشكل انتهى النقاش بيننا.

يوجد سرير كبير في الغرفة التي سنبقى فيها، وأريكة ناعمة وطويلة، إضافة إلى مسجلة من الحجم الصغير أيضاً. ما ان وقع نظري عليها حتى تذكرت شريطاً ً من المختارات الموسيقية لبيتهوفن جلبته معي من القرية وأشرطة السلاف لبرأهمس. بعدما وضعنا كل شيء في مكانه، تمددت على إحدى الاريكات الطويلة وبدأت الاستماع إلى بيتهوفن وكأنني لم استمع للموسيقى منذ شهور. كانت موسيقى هادئة، وصوت البيانو يريح النفس. قلت في نفسي" كنت بحاجة إلى هذا..!". فالأيام كانت مليئة بالحركة لدرجة أنني لم أتعود عليها طوال حياتي. أنني اعيش أكثر الأيام صعوبة؛ فالتعب الفكري والذهني والعاطفي أرهقني. أغمضت عيناي مستسلماً لصوت البيانو والكمان. لأستطيع التخلص من كافة التناقضات.

***

استيقظت في الصباح الباكر، جهزنا طعام الفطور للقائد وأخذناه للطابق الثاني. تجمعنا حول مائدة الطعام لنتناول الفطور، بدت لنا بعض الاشياء

دخل القائد في وقت لم أكن قد بلعت اللقمة بعد، فعلقت في حلقي، نظر القائد للمائدة وأخرى إلى الكتب المبعثرة بين الصحون وقال غاضباً:

"ماهذا، ألم تتناول فطورك بعد ..؟" لم أستطع الاجابة وبعدما حملت الكتب من بين الصحون، قال: "لاتتصرفوا كالزعرانين" ثم خرج. خجلت كثيراً، بعد هذه الحادثة لن أصحو متأخراً ولن أتناول الفطور متأخراً وسأكون أكثر إنتظاما في البيت. هذه الكلمات أصبحت السبب للوصول إلى هذه النتائج.

في الظهيرة جاء مندوب الاستخبارات الذي جاء بالامس ومعه شخصان آخران، وفي يد كل واحد منهما حقيبة DUPONT ، جلسا في الصالون بانتظار القائد، الرجل الغريب كان طبيعياً بقدر ما رأيناه في أودينسوفا، أما الآخران قلقون قليلاً ويظهرون بأنهم متوترين. عند نزول القائد قال الرجل الغريب بأنه سيلتقط صورة القائد ويُحضر جواز السفر هنا، عندها انحنيت نحو تايهان وقلت في أذنيه "أي جواز سفر سيحضروه..؟" أعطى تايهان بالحركات جوابه بأنه لا يدري. أخرجوا كاميرة تصوير POGAOID من حقائبهم واختاروا حائطاً مناسباً والتقطوا صورة للقائد أمام ذلك الحائط. بعدما التقط الرجال صورة وثائقية للقائد، دخلوا الحمام الذي يقع في الممر بعد أن حذرنا أحدهم: "لا يدخل أحد إلى هذه الغرفة قبل إنهاء عملنا". أطفأوا ضوء الحمام، ثم بدأوا العمل بعدما حجبوا الضوء الذي يتسلل من زجاج النافذة.

في هذه الأثناء جاء ماهر وصعد إلى القائد، كنا نستطيع سماع صوت القائد وهو يصرخ به ويوبخه، لكننا لم ندرك ما الذي يتحدثون عنه. بعد قليل نزل ماهر بمعنويات هابطة ومنتقع الصورة، توجه إلى الرجلان الباقيان في الصالون، كانوا يتحدثون من خلال ترجمة طاهر ويضحكون. حسبما سمعت من مكان وقوفي في الممر فإنهم لم يتكلموا حول أشياء مهمة، أما الرجلان اللذان في الحمام فلا زالا يواصلان عملهما بهدوء، يجهزون جواز سفر في الحمام الصغير، بآلاتهم الخاصة التي يحملونها في حقائبهم، إذاً المسألة هي مسألة الـ KCB أي الاستخبارات الروسية.

استمر عملهم لساعات عدة. وأخيراً أنهو عملهم وأتوا إلى الصالون ثم وضعوا آلاتهم في الحقائب التي يحملونها. نزل القائد بعد إعطائه الخبر

التي لم نراها في ظلمة الليل؛ نظرت ثانية إلى اللوحات الغريبة، لكنني لم افهم معنى عشرات الألوان المدهونة فوق بعضها البعض. وبينما لا نزال نتناول الفطور سمعنا صوت وقع أقدام على الدرج الخشبي. تحركنا جميعاً على الفور، وانتظرنا عند نهاية الدرج. وأمام الباب الخارجي كان الرجل وزوجته في غرفتهما القريبة من الباب الخارجي. لم يكن يلبس بزته الرسمية هذا اليوم، لكنه سيبقى في ذاكرتي بزته العسكري. ألقى التحية بلطافة هو وزوجته بكلمات تعني" صباح الخير". إذا سنجدها في هذه الغرفة متى ما نشاء، هذان الشخصان لن يصعدا الطابق الثاني الذي يتواجد فيه القائد، أما بسبب القوانين أو الآداب. على المنضدة الموجودة في غرفتهما جهاز هاتف وجهاز لاسلكي بالإضافة إلى سلاح من ماركة (smithvesson) وضع في غلاف جلدي، وربما كان مسدساً استعراضياً. هذا السلاح أقلقني بعض الشيء. ففي البيت السابق لم أر أي سلاح لدى الحراس طوال الفترة التي بقينا فيها. أو أنه لم يكن موجوداً أصلاً، لكن هذا الرجل لا يرى حاجة لاخفاء السلاح من على الطاولة، يظهر طبيعياً وهادئاً وسيقوم هذين الزوجين بالحراسة الداخلية للبيت.

نزل القائد وهو يرتدي بيجامة رياضية ومعطفاً خاكي اللون وقد انتعل حذاء قال لتايهان: "يجب جلب الهوائي والتلفزيون الذين أبقيناه في البيت السابق. فهنا لا يمكن التقاط القنوات التركية ولا MED T".

تدخل طاهر وقال للقائد بالكردية:" قائدي، أنا اعرف الطريق، الآن أستطيع الذهاب لجلبه".

سأل القائد:"أتينا في الليل، كيف ستعرف الطريق".

ـ أستطيع معرفته قائدي".

قال القائد لطاهر وهو يضحك:"هل أنت فأر موسكو..؟ حسناً إذهب وأجلبه مباشرة".

طاهر تحرك مباشرة بينما خرج القائد للحديقة، وخرجنا على أثره. كان الجو بارداً جداً، لم نكن قد رأينا بالأمس الحديقة جيداً، فللبيت حديقة أمامية وأخرى خلفية. هناك بيت آخر ذو طابقين يبعد مسافة ١٥ ـ ٢٠ متراً عن البيت الأول. أرضية الحديقة مكسوة بحجارة بيضاء تتوسط ساحة ترابية زرعت فيها أشجارصغيرة. ويلف البيت سور اسمنتي لا

ترتفع ليضربها جيداً. تعلقت عينأي بوجهه اثناء اللعب، حركات وجهه تتغير بغرابة، في كل ضربة للكرة تظهر عليه حركات تنم عن طفولة بداخله، والأكثر من ذلك كان يضحك ويرد على الضربات غير المتمرسة فيها. اللعبة تسير بتقارب في النتائج، لم أكن اسمح بزيادة الفارق، إما أقل منه بنقطتين أو التعادل... ومرات أتقدمه. عندما أتقدمه كان يتحمس أكثر إلى ان يصبح الفارق لصالحه حينها كان يضحك ببراءة. كسب القائد الجولة الأولى وبدأنا بالجولة الثانية، كنت مصمماً على ألا اكسب المجموعة الثانية. في هذه المرة استمر التبادل حتى اللحظات الأخيرة وحصلت على المجموعة بفارق عدة نقاط، ثم لعبنا الجولة الأخيرة، من يكسب هذه المجموعة سيكسب المباراة. في الحالات التي كانت تسقط فيها الكرة، لم أكن أسمح له بالآنحناء، كنت انحني قبله وأنأوله الكرة. كانت النتائج متعادلة حتى النهاية ولكن في احدى المرات تقدمته، عندها وقعت الكرة لصالحي. التقط تايهان الكرة من على الأرض وعندما مدها الي قال هامساً: "سيدار احذر لا تغلبه". جاوبته هامساً "لا تقلق". لا زلت اتقدمه. وقعت الكرة هذه المرة لصالح القائد، تركت مكاني والتقطت الكرة ثم قدمتها للقائد، لكنه نفذ الارسال قبل وصولي لمكاني، لذلك لم أصل للكرة، وسجلت نقطة لصالحه. ضحك القائد بصوت عال لأنه سد الفارق. سقطت الكرة ثانية لصالحه وذهبت مرة أخرى واعطيته الكرة ومن جديد حصل على نقطة من ارسال نفذها قبل ان اصل إلى مكاني، وكان يضحك. اصبحنا متعادلين، كنا نقترب من نهاية الجولة، الكرة وقعت للطرف الاخر ثانية؛ استخرجت نتجية من النقاط الأخرى، هذه المرة أخذت مكاني ومن ثم قذفت الكرة، فقال وهو يضحك: "لا تخف، لا تخف اقذف الكرة".

كسب القائد المباراة بفارق نقطتين، فسأل ضاحكاً: "ربحت أليس كذلك.؟" جاوبته " نعم قائدي".

بعد المباراة نزلنا، ودخلنا البيت الذي نسكنه بخطوات سريعة، فحتى الآن كان القائد يصعد لغرفته مباشرة بعد ان ندخل البيت، لكن هذه المرة دخلنا البيت بعد القائد ولكننا لم نره، ظننا بأنه صعد لغرفته، فدخلنا الصالون لنتناول الفطور. كان هناك كتب على الطاولة أيضاً، أخذت قطعة خبز ودهنتها بكريم الشكولاتة، كان ظهري للباب، تناولت لقمة كبيرة، وفجأة

يتجاوز طول الإنسان وبالقرب منه أشجار باسقة. هناك يوجد باب مفتوح بين المباني المختلفة تدخل منها السيارات وتتوقف في الساحة الخالية بين البيتين.

الخروج من البيت ممنوع بذرائع أمنية، وعلى خلاف أودينسوفا الامكانات هنا قليلة فلا مكان للخروج أو التنزه في الغابات، إنه سيتمشى في هذه الحديقة الصغيرة خلال المدة التي سنبقى في هذا البيت. القائد يتمشى في الحديقة ذهاباً وإياباً وتايهان يقف بمحاذاة الحائط في أبعد نقطة ومن هناك يمكنه رؤية أي طارئ محتمل في الطريق المار بجانبه. بدوري وقفت بجوار الباب الذي يدخل منه السيارات، فمن هنا يمكنني مراقبة الشارع العام المار أمام البيت. توقفت على أصابع قدمي لأرى ما يتواجد وراء الباب وعلى الطريق. اصطفت إلى جانب الطريق سيارة سوداء اللون من ماركة(BMV5020)، وفي داخلها أربعة رجال ضخام الجثة، يرتدون البدلات. وفي نقطة تقاطع شارع فرعي آخر مع الشارع العام تقف سيارة أخرى. لا أستطيع احصاء عدد الرجال الموجودين فيها. تايهان يستطيع رؤية تلك السيارة جيداً من مكان وقوفه، ماذا تفعل هذه السيارات هنا..؟. ومن هم الذين في داخلها..؟. نظرت مرة أخرى، في هذه المرة هم أيضاً نظروا إلي بنظرات خالية من الشك والقلق. نظرت إلى تايهان، هو الآخر ينظر إلى تلك الجهة بين الفينة والأخرى. لا أستطيع رؤية ملامحه، بينما القائد يتابع المشي في هذا المكان الضيق من الحديقة، ورغم التغير المستمر لملامح القائد لكن التوتر هو الغالب عليه. من جهة أخرى نظر إلى الأشجار والبيت الثاني، وفجأة اتجه نحو ذلك البيت ودخله ونحن تبعناه.

هناك درج بعد نهاية ممر قصير، فتح الباب على الطرف الأيمن لبداية الممر، بدخولنا رأينا آلات رياضية؛ دراجة رياضية وآلة سحب الاثقال وآلة المشي الميكانيكية ومرايا على قسم من الحائط. في الطرف الأيسر للغرفة توجد أريكة تتسع لثلاثة أشخاص وعلى جانبها منضدة، وعلقت في كافة أنحاء الحائط مصابيح ملونة. وعلى كل جدار صورة لجيرنيوفسكي وميترافانوف ولوكشينكو. تفحص القائد هذه الصور بدقة، أما الآلات الرياضية فلم يلمسها، نظر إليها دون اهتمام وكأن روح حاله تقول:"

من هذه الاشرطة الكلاسيكية، قال تايهان وهو يستمع لغيتارو:" كلما استمع لهذا الشريط اتذكر سنوات الجامعة في أنقرة، ويتسلل إلى مخيلتي الصور العائدة لتلك السنوات التي خلت... الحلوة منها.... والمرة".

***

استيقظت في هذا الصباح متأخراً، وبينما كنا نتناول الافطار نهضنا واقفين مع سماعنا لصوت قادم من الدرج الخشبي، وأنتظرنا عند نهاية الدرج. كان يلبس معطفه وفي يده قبعة من الصوف:"صباح الخير، هل هناك برد في الخارج...؟

ـ قائدي؛ انه بارد ولكن رغم ذلك نستطيع المشي.

ـ حسناً إذاً، لنتمشى.

خرجنا على الفور، كان الجو بارداً فعلاً، فأردف قائلاً: "إنه بارد، كم كانوا يتكلمون عن برودة موسكو" قالها وبدأ المشي في الحديقة. السيارة التي تقف وراء الباب الخشبي كانت في مكانها والسيارة الأخرى في نفس المكان. وبينما كان يتمشى بخطوات متثاقلة، التفت الينا منادياً وهو ينظر في عيني تايهان: "لقاء القائد ولو لمرة واحدة يكفي من أجل حياة صحيحة، ان ارتبطتم جيداً بعدة مبادئ، فانها ستوصلكم للنجاح".

اندهشت لذلك، وكأنه كان موجوداً أثناء مناقشتي مع تايهان ويعرف أحاسيسه، ولكن هذا غير معقول، انه يحس بها نعم، يدرك الوضع النفسي الذي يعيشه تايهان، انها قوة حسية كبيرة..! هل هذه هي الحاسة السادسة التي يتكلمون عنها..؟ طبعاً أصحاب العواطف القوية يملكون الحواس القوية أيضاً. لم يمشِ كثيراً بسبب البرودة، فدخلنا البيت الثاني وصعدنا للطابق الثاني. حمل القائد احدى المضارب الموضوعة على الطاولة وسأل:"هيا لنلعب مباراة، من منكم يعرف..؟"

عندما لم يتكلم تايهان أعطيت الجواب: "أنا أعرف قليلاً قائدي"

ـ هيا تعال وواجهني

الحكم تايهان ويحسب النقاط، الارسال الأول نفذه القائد. ومن ضربته الأولى فكرت بأنه إما لا يعرف جيداً أو انه يختبرني؛ كان يرفع الكرة كثيراً للاعلى ولكني لم اكن اضرب الكرة بشدة، بالعكس كنت اجعلها

وماذا تكون هذه المصابيح الملونة..؟". فتح باباً آخر كان يقع في الجهة المقابلة للباب الذي دخلنا منه؛ مسبح صغير، يجاوره كابينة الدوش وعلى الطرف الأيمن من الغرفة حمام بخاري صغير (سأونا). أرضية الحمام مفروشة بقطع خشبية رقيقة وعلى الحائط ميزان حراري لإظهار حرارة الحمام. اتجهنا بعدها نحو الدرج الموجود في آخر الصالون وصعدنا للطابق الثاني؛ بالقرب من مكان انتهاء الدرج، طاولة بيلياردو أمريكية تناثرت كراتها، علقت مجموعة عصيها على الحائط. كذلك هناك طاولة كرة الطاولة، مشدودة الشباك، والمضارب. الكراسي تحيط بالطابق كله وفي كل زاوية منضدة صغيرة وبعدها بقليل نافذة كبيرة جداً بإطار حديدي، تطل على الشارع. ظهرت بوضوح تلك السيارة الواقفة على جانب الطريق عبر النافذة، كانوا لا يزالون ينظرون الينا، فقلت في نفسي:" إذا كان أصحاب السيارة ذوي نوايا سيئة، فلا بد أنهم أدركوا من هو أمام النافذة وعرفوه". لم يبالي القائد ونظر فترة عبر الزجاج إليهم وككل مرة كان هادئ الاعصاب، لكنه استمر في التفكير. بعد أن طالت وقفة القائد أمام النافذة قال تايهان:" قائدي؛ من المستحسن أن لا تتوقفوا كثيراً أمام النافذة"، حينها بدأ القائد بالسير مبتعداً عن النافذة الزجاجية. وبعد رجوعه عدة امتار، تقدم ثانية وركز عيناه في عيني تايهان وقال:"لا تخف، لن يحصل مكروه، ماذا ستفعلون لوكنتم مكاني يوماً واحداً..؟. هل قلوبكم كانت ستتحمل..؟ الظاهر إن قلبكم سيتوقف من القلق والاضطراب، حسناً ماذا ستفعلون لو حصل لي شيء..؟. ألستم القائلون في كل يوم "نحن جميعاً آبو" ها..!

استمر بالمسير متأنياً بجانب طاولة التنس وبعد فترة من الصمت التفت إلينا مباشرة وقد تقطبت حاجباه من شدة الغضب. انحصرت عيناه الصغيرتان، حتى اختفت حدقتا، وبغضب قال: "منذ ٢٠ سنة وأنا اتحدث كل يوم للجميع ومع الجميع دون توقف، من الصباح حتى المساء. حولتموني إلى ثرثار يكرر الكلام نفسه، معدتي تورمت من الكلام طوال عشرين عاما، لكن ومنذ مجيئي إلى هنا، سكنت آلامها". كانت حاجباه لا تزالان قاطبة، وفي صوته تشكي.

صورة جواز السفر. اقتربت قليلاً منه ولمحت الصورة أنها عائدة للقائد ومكتوب تحت الصورة "عبد الله"، لكنني
لم أستطع قراءة الكنية، وبعد فترة هز رأسه ايجاباً وغادر المكان. كان تايهان مندهشاً، خرج ماهر ومجيد بعدهما. جاء القائد إلى الممر الذي نقف فيه وبدأ يحدثنا قائلاً:

"بعد ما انكشفنا في البيت الآخر، بدأت تركيا بالضغط على روسيا لإخراجنا من هنا، لذلك سيقوم شخص بالخروج من روسيا بجواز سفري وهذا لن يكون أنا بالطبع. بعد هذا الخروج سيدعي الروس" بأن آبو غادر روسيا" ولكنني سأكون هنا، هكذا سيتخلصون من الضغط الموجود عليهم. رفيق تايهان؛ ستذهب إلى الشرق الأوسط، انه فترة عقد المؤتمر، اذهب وانضم إلى المؤتمر السادس. اذهب واعصف كالعاصفة في المؤتمر، اشرح لهم ما يعيشه القائد، وضّح الصعوبات التي نعانيها من أجل تهيئة مكان لنستطيع التنفس فيه. اشرح لهم بأنهم لا يستطيعون الاستمرار هكذا، وانهم بحاجة إلى التغير وإعادة البناء الذي بات من الضرورات العاجلة التي لا تحتمل التأجيل.".

صعد القائد إلى غرفته بعدما انهى كلامه وطغت الدهشة على تايهان. كان قد ترك التدخين منذ وعده للقائد، لكنه دخل المطبخ واغلق الباب خلفه وأخذ يدخن أمام النافذة. ذهبت إليه وجلست بالقرب منه، لم اتكلم بل لمحت بعيني ليتكلم، نظر إلي وقال:" اننا نمر في مرحلة عجيبة تهز كيان الإنسان كل يوم، هذه الفرص تمنح للانسان مرة واحدة، اننا نشهد هذه الحقبة التاريخية، فالذهاب للمؤتمر فرصة كبيرة وخاصة بتكليف من القائد، انه وضع مشرف، رغم كل هذا هل تعرف على ماذا أتأسف...؟ بعدما رأيت القائد اثر سنوات طويلة بهذا الشكل، أتأسف على الفراق عنه بدون تلقي تدريب ".

ومع هذه الكلمات كان يدخن سيجارته بانفاس عميقة، فالانقطاع عن تايهان صعب علي أيضاً؛ هبت رياح الانفصال منذ الآن. أخرج تايهان من جيبه شريط مسجلة: خذ هذا الشريط وليبقى لديك، لتكون ذكرى للأيام التي قضيناها سوية". كتب على الشريط " غيتارو"، لم استمع إليها من قبل. تايهان من محبي الموسيقى الكلاسيكية، وفي غرفته بالقرية الكثير

ـ ثم واصل كلامه " قمت بما يتطلب مني، ومن الآن فصاعداً افعلوا ما يحلو لكم. لا تعملون ولا تنجحون، لذا تموتون بكل سهولة..! اننا نسير على الصراط المستقيم، مَنْ منكم يحس بهذا الأمر..؟. حملة طوفان التمشيطية التي بدأت في ١ تشرين الأول هدفها التخلص من القائد جسدياً، وان لم يتحقق ذلك فسيخلقون وضعاً لا نستطيع فيه التنفس".

أسرع من خطواته، نزل الدرج وهو يقول:" لقد أديت مهمتي، قمت بما يتطلب مني". لا زالت صدى هذه الكلمات تدوي في رأسي.

خرج القائد إلى الحديقة وبدأ يتمشى جيئة وذهاباً وهو يعيش هذه الكلمات في داخله. توقف في ركن من الحديقة ونظر بتمعن إلى صفحة السماء مرة، وإلى الأشجار العالية المتفرعة مرة أخرى، ثم تابع المشي ببطئ، تقطبت حاجباه مرة أخرى واختفت حدقتا عينيه، ثم رسمت ابتسامة من تحت شاربيه. برقت عيناه حتى انبهر ضوئها وضحك بصوت مسموع، كان أحياناً يتحدث مع ذاته، أجل انه يتكلم مع نفسه.

الأجواء الباردة وليدة الثلج؛ لقد بدأ موسم الثلوج في هذه المنطقة منذ فترة. الغيوم البيضاء كانت تلف وجه السماء وهطول الثلج بات مسألة لحظات. برودة حادة تتسلل إلى أجسادنا، أيقنا إن القائد أيضاً برد، وقد عبر عن ذلك بحركات مثل مد يديه إلى أذنيه ثم توجه نحو باب المنزل وصعد إلى غرفته. اتجهنا نحو المطبخ لشرب الشاي علّنا نتدفأ، قلت لتايهان:"رأيت أناس مميزين كثر في حياتي، لكني لم أر حتى اليوم انسان ممن عرفتهم أو صادفتهم يتكلم بهذا الشكل مع نفسه بصوت أو بدون صوت ويغضب ويسخط ويضحك بهذا الشكل".

قال تايهان مبتسماً: أنا أيضاً مثلك، لكن لا تنسى انها خصوصيات تميز كل انسان عن الآخر؛ لحياة القائد منذ الصغر جوانب كثيرة مميزة، وهذا ما يمكنك رؤيته في قصص حياة جميع العظماء، انهم يعيشون منذ صغرهم تناقضات. وأغلب تطوراتهم هي تلك الفروق التي تميزهم عن الناس العاديين، ومميزات هؤلاء الناس متقاربة؛ مثل نيتشه ونابليون وماني، حيث عاشوا خلافات حادة مع الآخرين في عهودهم، هذه الفروقات تمنح شخصياتها سجية التصرف، قد تكون التصرفات مختلفة

ومذهلة للناس العاديين. وتصرفات القائد تعكس شخصيته بهذا الشكل للخارج".

الوقت يقترب من الظهيرة، لكن ساعة القائد المتخلفة عن ساعة روسيا بساعتين، لم تكن تشير إلى ذلك؛ فالساعة الروسية تتقدم ساعة الشرق الأوسط بساعتين، والقائد لا يزال يتحرك حسب ساعة الشرق الأوسط، وفقها يأكل طعامه ويخصص أوقات النوم. فاطمة وروزرين فرغتا لتوهما من تحضير الطعام، أما الرجل وزوجته فقد جلبا مستلزمات المطبخ من الخارج، بهذه المواد صنعوا عدة انواع من المأكولات. وللترويح عن نفسي قمت بمساعدتهم قليلاً.

بعد الظهيرة سمعنا فجأة صوت عدة سيارات، من بينها جيب ماهر، لم تدخل السيارتان الآخرتان الحديقة، بل توقفتا في الخارج. نزل ماهر ومجيد من الجيب ومن السيارتين نزل رجلان، أحدهما كان ذلك الرجل الغريب موظف الاستخبارات وبرفقته رجل سمين يلبس بدلة، ذو نظرات بليدة أراه للمرة الأولى. الرجال الذين يبقون على مدخل البيت تصافحوا مع ذلك الرجل، يبدوا انهم يعرفونه. دخل ماهر ومجيد والذيّن معهما إلى الصالون. بعد فترة من صعوده نزل مع القائد الذي صافح القادمين بلطافة المضياف وابتسامته، ومجيد يقوم بالترجمة. مجيد من كرد روسيا، لغته الروسية والكردية جيدة، تاجر ثري جداً وفيما بعد أدركت إنه عميل لـ KGB وشرطي في الانتربول..! علاقته مع ماهر جيدة جداً، والصداقة مع هذا الرجل بالنسبة لماهر تعتبر علاقة دبلوماسية هامة جداً..! إنه باب يطل من خلاله على الدولة وسيبدأ مجيد بالمجيء المستمر إعتباراً منذ اليوم.

الرجل الغريب الذي كان مسؤولا عن أمن القائد في أودينسوفا كان يتكلم كثيراً، نسبة إلى الرجل الآخر. القائد لا يعرف الروسية ولذلك كان يمازحهم بالحركات، ومن خلال الترجمة كان يشعرهم بتأثيره الذي يمكن قراءته بسهولة. وعندما نهضوا لمغادرة المكان، اتجه الرجل الغريب نحو تايهان واقفا أمامه وأخرج جواز سفر تركي من جيبه، فتحها على الصفحة الأولى وقربها من وجه تايهان، نظر مرة إلى تايهان ومرة إلى